تأدية الواجب

ترجمة

محمد السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

تأديةُ الواجبُ

مطبوعات مكتبة مصر

تأدية الواجب

ترجمة

محمد السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فلما كانت الأخلاق قوام الأفراد والأمم ، وكان عليها مدار الصلاح والخير والرقيّ والسعادة ، كانت كتب الأخلاق خير ما يظفر به وأنفس ما يقتنى . وأى شىء أفضل من كتاب ينفث العظة والحكمة فى صدور الناس ، ويبصرهم سبيل الرشد بالمثل السائر والحكمة البالغة والأسوة الجميلة والقدوة الحسنة . ولما كان كتّاب الإنكليز قد أولعوا بهذا الفن وألفوا فيه الأسفار المطولة والأبواب الضافية ، ولما كان بحر العلم أعمق من أن يدرك غوره مهما لجج الغواص ، ومدى الحكمة أبعد من أن تنال غايته مهما أمعن الركاض ، وكانت الأفكار والآراء لا تزال تتجدد بتجدد الأزمان فما كان فى سالف العصور مستصوباً فربما لا يحسن الآن . وكانت حياة أمة قوية راقية كالأمة الإنكليزية جدير أن يوجد بين أثناء ماضيها وحاضرها من جلائل الأعمال ومكارم الخلال ، وما ينجم عن هذين من آراء المفكرين ونتائج المنطقيين وقواعد المشرعين ما عساه لا يوجد مثله فى تاريخ أمة لم تؤت حظ تلك الأمة ومزاياها ، قد رأينا لكل هذه الأسباب أن نترجم إلى أهل هذا البلد شيئاً

مما ألف حكماء الإنكليز فى باب الأخلاق ، ثم طلبنا وفتشنا فلم نجد خيراً من كتاب « الواجب » لمنشئة صموئيل سميلر لعدة أسباب منها أنه سهل المأخذ قريب المتناول ناصع البيان واضح المعنى ، ومنها أنه كثير الشواهد تخاله معرضا يجلو عليك عرائس الأفكار وعقائل المعانى أفانين مختلفة وضروبا شتى كالبستان فيه كل ما لذ وطاب ، أو متحف الصور حوى كل فن من التماثيل ، وضرب من التهاويل ، ومنها أنه مملوء بسير الأبطال وأعاظم الرجال ، وأفعالهم وأحوالهم وملحهم ونوادرهم ، ولعلّ ذلك لاستهوائه النفوس ولطف مسلكه فى الضمائر وجريه مع الأرواح ، أملأ من مجرد سرد الحقائق وتقرير المبادئ بتثقيف الأذهان وتهذيب الأخلاق وإفعام القلوب بالأدب والحكمة والأخبار والآثار . ولقد قال إسحق ديزرائيلى » : لشد ما ينكر فريق من الناس تلاوة الفكاهات والملح عن المؤلفين والكتاب ، ويقولون إن هذا إلا لغو لا خير فيه . إنما الخير فيما أبرز هؤلاء الكتاب من بنات صدورهم وما أطلعوا من ثمار عقولهم . ألم يعلموا أن أفيد من ذلك وأنفع ، وأملح وأروح ، بعض ما يحدّث عنهم من الحكايات واللطائف ، والفكاهات والطرائف ؟ وقال بلوتارك : ربما كانت الكلمة الصغيرة والمزحة والفعلة التافهة ، تصدر من الرجل العظيم فتروى عنه ، أدلّ على فضائله ورذائله وأنطق بطبعه وخلقه من أجلّ مآثره ، وأفخم مفاخره .

كل هذه الأسباب ما دعانا إلى إيثار هذا الكتاب الثمين بالاختيار

دون غيره ، لا إصغاراً لغيره ولكن ولوعا بالأمثل ، وشغفاً بالأنبل ، وأولى الثمار باجتناء انضجها وأطيبها ، وأحرى الملابس باكتساء أجملها وأعجبها .

وحسب الكتاب نبلا أنه قد طبع نيفاً وثلاثين مرة فى الثلاثين السنين التى مضت منذ ظهوره ، وأنه ترجم إلى سائر لغات أوربا وإلى لغة اليابان وإلى عديد من لغات الهند ، وأنه أثر فى نفوس الناس أثرا ظاهراً محساً ، وكان من عوامل الرقى والتقدم .

★ ★ ★

الفصل الأول

(الواجب ــ الضمير)

ليست حياة الإنسان مقصورة على ذاته ، إنما هى له ولغيره . وما من أحد إلا عليه واجب يؤديه غنياً كان أو فقيراً ، والحياة قد تكون نعمة لهذا ونقمة لذاك . على أن أولى البر والتقى لا يرون الحياة هى التلذذ ولا هى اكتساب الفخر والذكر ، بل يرونها الجد والاجتهاد والعمل الصالح .

قال هيروقليز : إن كل واحد من الناس مركز تدور حوله دوائر ، فأولاها ممتدة منا مشتملة على أبوينا وزوجتنا وأولادنا ، والثانية تشمل الأقارب ثم أبناء بلدنا ثم سائر البشر .

ولأداء واجبنا فى هذه الحياة الدنيا تلقاء الله عز وجل وتلقاء الناس فى حسن مواظبة وإتقان ، لابد لنا من تثقيف كل ما وهبنا الله من القوى والملكات ، وما أكثر ما وهبنا .. وهبنا كل شيء . وليس لنفوس البشر من مرشد ومدبر إلا الله الذى يعرفنا الخير من الشر ويبصرنا سبل الحق والباطل ، فنصبح بعد ذلك مسئولين أمام الإنسان فى هذه الحياة ، وأمام الله فى الآخرة .

وليس للواجب مكان محدود ، وإنما الواجب كائن فى كافة أنحاء

الحياة وجهاتها . ونحن لا قدرة بنا على الفقر والغنى ، ولا خيار لنا فى الشقاء والسعادة ، ولكنه خليق بنا أن نؤدى الواجب الذى هو محيط بنا أينما كنا . وأداء الواجب مهما كانت الجشم والأخطار هو لا مشاحة جوهر المدينة العليا وصريح لبابها . وكان حتما على الإنسان أن ينصب للعمل الجليل والأمر العظيم ، ويسمو بأقصى أمله إلى الغرض النبيل والقصد الشريف كما كان يفعل السلف الصالح ، يدرك المنى أو يموت فيعذر .

ولا يزال الحكماء يشبهون الواجب على العموم بواجب الجندى الذى يرى الموت دون ترك الواجب . ولا نزال نذكر نبأ الجندى حارس مدينة بومباى[1] وكيف قضى شهيد الواجب ولم يبرح مكانه إذ المدينة تسيخ فى الأرض ينهال عليها الحمم والرماد من بركان فيزوف منذ ثمانمائة عام وألف ، بل ثبت موضعه على حين لم يبق جندى غيره إلا مضى هائماً على وجهه ، ولكنه قال لنفسه : إن الثبات حيث أقامنى أولو الأمر واجبى ولابد من أداء الواجب . فجعل دخان الحمم المتساقط يخنقه وإنه لراسخ القدم مكانه لا يتزحزح ولا يتزعزع ، وآض جسمه رماداً ولكن ذكره حىّ باق ، وما برح حتى الآن درعه ورمحه وبيضته ترى بمتحف

---

(١) كانت فى عصر الرومان من مدائن إيطاليا ، وكان قربها بركان فثار مرة فخسفت المدينة على الأثر وغارت وبادت .

بوربونيكو ببلدة نابلز ، شهوداً عدلاً على حسن أدائه الواجب وصدق بلائه .

لقد كان ذلك الجندى نظاميا ومطواعا ، وقد فعل ما نيط به وندب له . ولطاعة الوالدين والرئيس والقائد خير ما ينبغى لعاقل أن يروض نفسه عليه ويأخذها به . والطاعة أولى ما بدئت به الطفولة ، ثم لا ينبغى أن يجعل الكبر عذراً عن ترك الطاعة وعلة للخروج منها ، بل ينبغى لكل امرئ أن يلزم الطاعة حتى يأتيه أجله ، وأن يكون موضع الواجب من نفسه بحيث ينسيه نفسه فلا يكاد يبصر إلا ذلك الواجب وإلا أداءه ، ضاربا صفحاً عن شئونه الذاتية ، منكباً عن ذكر ما قد يصيبه من الضر والأذى ، بل من التلف والردى .

ولما وردت الأنباء عن غرق السفينة « بركنهد » ونوتيتها الشجعان ، وأنهم أطلقوا نيران الفرح والسفينة تهوى بهم فى غمرات اليمّ وأفواه المنية تلتهمهم . وكان الديوك ولنجتون قد أدب عقب ورود النبأ إلى وليمة أقيمت بدار المجمع العلمى الملوكى ، قام ذلك اللورد فى المحفل فخطب القوم وذكر حادث الغرق ، وكان الكاتب اللورد ماكولى حاضراً فقال فى بعض كتاباته وأشار إلى تلك الخطبة : لقد أدركت (وأدرك المستر لورنس الوزير الأمريكى عين هذا الأمر) أن الديوك ولنجتون لما كان يؤبن أولئك الغرقى لم يذكر قط شجاعتهم العظيمة ، وإنما كان يردد ذكر نظامهم وطاعتهم مرّات

عديدة . ولعله كان يرى الشجاعة أمراً عاديا لا يكاد يذكر ، والشجاعة وحدها لا تسمى قياماً بالواجب ، فالمصارع الذى يبارز الأسد بمثل سطوة الأسد إنما دفعه إلى ذلك إعجاب الناظر وكأنه لم يخل طرفةَ عينٍ من الزهو بنفسه والرجاء الجزيل المثوبة . وكذلك بيزارو إن قيل إنه شحذ للأمر عزيمته وجرّد همته ، وذلل الصعاب واقتحم العقاب ، قلنا إنه ما كان ليفعل ذاك لولا ولوعه بالذهب ، وحرصه على النشب .

قال القديس أغسطين : « أتبغى أن تكون عظيماً ؟ إذن فابدأ بأن تكون صغيراً . أتريد أن ترفع بناء عالياً ، وتشيد صرحاً سامياً ؟ إذن فلتبدأ أن عملك بأساس من التواضع ، فإنه بمقدار عمق الأساس تكون رفعة البناء . والتواضع فاعلمن هو تاج الجمال ، وإكليل الكمال » .

وأحسن الواجب ما أدى سرّا فلم يطلع عليه إنسان ، فإن ذلك يكون أكرم وأتقى ، وأبرّ وأوفى ، لا يشوبه زهو ولا يلحقه غرور . ويكون صاحبه قد سار على سنة أمجد وأعلى ، وشريعة أشرف وأسنى ، تقضى على أهلها باعتقاد أن للمجتمع الإنسانى حقاً فى ذمة كل إنسان ودينا فى رقبته ، مهما يجهد المرء فى قضائه يمت ولما يقضه . وإن كل سيئة أو خطيئة يأتيها أى فرد ما ، سيحاسب عليها المجتمع يوماً ما فيؤخذ بها ويجزى عليها .

وبعد فأنى لابن آدم بمعرفة واجبه ؟ أترى فى ذلك من مشقة ؟

إن أول الواجبات وأعظمها الواجب لله ، ثم يجىء بعد ذلك الواجب نحو الأسرة ، والواجب نحو الجيران ، وواجب الخدم على السادة ، وواجب السادة على الخدم ، والواجب نحو الخلق ، والواجب للحكومة ، وواجب الحكومة للأمة .

وكثير من هذه الواجبات ما يفعل سرّا . ومن السهل أن يعرف من المرء حياته العلنية ، ولكن الذى لا يدرك ولا يطلع عليه هو حياته الباطنية .. حياة روحه وضميره . وإنه لفى طاقة المرء أن يكون برّا أو فاجرا ، إذ ليس فى قدرة أحد أن يقتل من امرئ ضميره وروحه ، وإنما تقتل الروح نفسها . وإنا لو نستطيع أن نفيد أنفسنا وغيرنا شيئا من الكرم والبر والتقوى ، لكنا إذن قد بلغنا المجهود وأدركنا غاية الطاقة

وإليك حديث رجل أمريكى مشرّع يريك كيف كان حرص ذلك الرجل على أداء فرضه ، وشدة استمساكه بعروة الواجب .

كسفت الشمس منذ مائة عام بمقاطعة إنكلترا الجديدة بأمريكا ، فأظلمت السماء وخيل إلى الناس أن قد جاءت الساعة ونفخ فى الصور . واتفق إذ ذاك أن مجلس التشريع كان منعقداً فاقترح أحد الأعضاء فض المجلس وتأجيله ، فقام رجل من الأحرار يدعى ديفنبورت النائب عن مقاطعة ستامفورد فقال : إن كان حقا قد جاءت الساعة ، فما أخلق أن تجىء ونحن عاكفون على العمل قائمون بالواجب . ثم أمر بالشموع أن توقد وبالعمل أن يعمل ، وكان القيام بالواجب مذهب ذلك الرجل ، وما كان ليثنيه عن مذهبه شىء .

وقد كان فيمن كان رجل ضعيف الأسر[١] واهى القوى ، وكان على وهنه ورقته قد وقف كثيراً من أوقاته على أعمال البر والرحمة ، يعود المرضى فيجلس إلى فرشهم فى دورهم القذرة الكريهة ويمرضهم ويعينهم بكل ما ملكت يداه ، فعذله أصحابه على تركه عمله ، وحذروه العدوى من المحموم والموبوء . فقال لهم فى سهولة مشفوعة بالثبات والإصرار : إنما أؤدى أعمال حرفتى لأكسب قوت زوجتى وأولادى ، غير أنى أعلم أن للإنسانية علىّ حقاً ، وأن للناس فى رقبتى فرضا يحتم علىّ أن أعنى بشئون من ليس من أهلى » .

هذه كلمات رجل قد شغفه حب الواجب فوهب له نفسه ، وليس واهب المال هو المحسن الصادق لبنى جنسه ، إنما المحسن الصادق من وهب نفسه . وربما أعلن المال عن ربه ونوّه باسمه وأذاع صيته ، ولكن هبة النفس والقوة والوقت تكسب واهبها الخلق . نعم قد يبقى ذكر واهب المال وينسى واهب النفس ، ولكن أثر إحسانه خالد لا يفنى .

وبعد فما هو أساس حب القيام بالواجب ؟ أساسه الضمير . وهذا معنى ما زال يعرف منذ أول المدنية ، فقد قال « مياندر » الشاعر اليونانى الذى عاش قبل المسيح بثلثمائة عام : « إن

---

(١) البنية .

لنا فى صدورنا إلـٰه اسمه الضمير» . وقال فى موضع آخر « لم يخلقْ الإنسان ليعيش منفرداً . متى ما أتيت المعروف وقدّمت الصالحة فلا تحزنن ولا تخافن فإن الله ولى الأبرار المتقين . وما كان ابن آدم قط أحوج منه إلى فؤاد مملوء بالخير والكرم والضميرالحىّ » .

والضمير هو تلك القوة النفسية التى يصح أن تسمى « الغريزة الدينية » . وأول ما تبدو هذه الغريزة حينما نشعر بحرب فى صدورنا بين الغرائز العليا والغرائز السفلى ، أعنى بين الروح والمادة .. بين الخير والشر ، لتغلب الأول على الآخر . انظر أينما شئت فى الكنيسة وخارجها ، تر هذه الحرب أبداً مشبوبة — إما لفوز الفضيلة وإما لانتصار الرذيلة — تر الناس رجالاً ونساء قد شفهم التحسر وأمضّهم الندم ، إذ كانوا يحبون الخير ويصدهم عنه شهواتهم .

وهذا الشعور هو منبع الديانة — تلك الشريعة العليا التى تسمو بالنفوس إلى إلـٰه فرد لا يزال لنا من الضمير ممثل له ونائب عنه وصادع بأمره . قال كانون موزلى : « إنما بنيت الديانة على محاسبة النفس ، إذ يمضى المرء ببصره إلى أعماق سريرته فيرى ما هنالك من قتال بين الروح والمادة فيصبح من أمر نفسه على بينة ، ثم تفضى به معرفة نفسه إلى معرفة خالقه » . وبذلك يميز المرء بين الحق والباطل ويظل بالخيار بين الخبيث والطيب . ومن ثم تقع عليه المسئولية والحساب .

ومهما يدر بأذهان الخلق ويجر على ألسنتهم من نظرية

الاضطرارية ، أعنى أن المرء مسير لا مخير ، وأنه يأتى أعماله عن قدر سابق وقضاء محتوم ، فإنك لا تكاد تجد من يشعر حق الشعور بصحة ذلك ، إذ لم يكن هناك أدنى تقييد لإرادة الإنسان . وليس من وراء نفوسنا ساحر يحملنا على الأمر نأتيه رغم أنوفنا . وقد قال جون ستيوارت : « إنه مهما قوى علينا باعث الهوى فلا نزال نشعر بفضل قوتنا عليه ، وإنه لو شئنا أن نتغلب عليه لفعلنا . بذلك نشعر ، ولو شعرنا بغيره لنالنا من ذلك ذلة واستخذاء ويأس من بلوغ حد الكمال » .

ولا مراء فى أن أعمالنا اختيارية . وإلا فكيف يسن الناس القوانين فى جميع أنحاء العالم ليرضخوا لها وليذعنوا لأحكامها وهم جميعاً (وبحق يعتقدون) أن طاعة الإنسان للقانون وعصيانه إياه أمر يرجع إلى إرادته وعزمه . وما برح كل امرئ يعلم أنه مسيطر على أهوائه وشهواته لا أن أهواءه وشهواته عليه مسيطرة . والمرء يعلم حتى ساعة خضوعه لشهواته أنه قادر على قمعها وردها ، وأنه إن شاء نفض هذه الشهوات من نفسه بتاتا وخلعها عنه كما يخلع الرداء ، فإن فى الذى وهبه الله من عزم وإرادة خير كاف لذلك .

لن ينال الإنسان أشرف أنواع الحرية الروحانية حتى يصادف من الدين منوّراً لظلمات عقله ، فإذا استنار العقل وأبدى الضمير قوته إزدادت مسئولية المرء . ثم يذعن المرء لسلطان المشيئة الإلـٰهية ، ويجرى فى كل أعماله على حكمها مسروراً بذلك راضياً لا مرغماً

كارهاً . وكيف وإنما يسير على سنة الحب الإلـٰهى .

قال الأرشديكون هير : « الإنسان بلا دين هو عرضة النوائب وغرض الحوادث . ولكن الدين فوق الحوادث والنوائب فهو يسمو بالإنسان فوقها » . وقال توماس لينش : « لا يكون المرء حراً حتى يقيد بأحكام الدين . والشجرة الصلبة لا تنبت وتنمو إلا إذا حبست البذرة فى الثرى . وأخو الفضيلة هو ذاك الذى رسى أصله ، أعنى رسى أصله فى الله وضرب عرقه فى ثرى الإيمان » وجاء فى التوراة : « الحرية حيث روح الله » . وقال كوبار : « لا حرية إلا ما نيلت من طريق الحق ، وكل حرية غير هذه أسر » .

أما الذين لا دين لهم ولا يعرفون تلك الشريعة العليا ، فأولئك يجرون فى عنان الشهوة ويركبون مطية الهوى ، ولا يصدرون فى أى أعمالهم إلا عن باعث من الأثرة[(١)] والغرض ؛ ثم هم يعلمون أنهم على خطأ ، ولا يبرحون من لذع الضمير فى نصب ، فضميرهم مؤنب لهم ، وقانون الطبيعة ناقم عليهم . ولكن سلطان الهوى وقلة الرادع الدينى وما نجم بين هذا وذلك من طول معاوذة المنكر ، قد فلّ شبا[(٢)] عزيمتهم حتى لا طاقة لها بمقاومة داعى الشهوة . عند ذلك يصبح الإثم عادة لهم وديدنا .

ولكن الضمير حىّ لم يمت ، ونحن لا نستطيع أن نلحد للضمير

---

(١) الأثرة هى التى يسمونها الأنانية وهى حب الذات .

(٢) الشبا هو الحد .

قبراً ونقول له : « هنا فلتنم » . لا أنكر أنه قد يمكننا نبذ الضمير وإلقاؤه دبر الأذن وتحت القدم ، ولكن ذلك لا يقتله . وإن لكل جناية يرتكبها المرء ملكا منتقماً . ثم لا نستطيع عند ارتكاب الجناية أن نغمض دونها العين فلا نبصر ، أو نطوى دونها الأذن فلا نسمع بل نقترفها برقبة من الضمير وعلى خشية منه ، ومن ثم قول القائل : « الضمير يتركنا جبناء » . ولابد للمرء — حتى فى هذه الحياة الدنيا — من يوم حساب يثور فيه الضمير أمامنا يحذرنا اللجاج فى الغى ، ويسألنا الرجوع إلى الرشد .

والضمير دائم عام وهو لباب الشخصية ، ومنه يستمد الإنسان ضبط النفس ومقاومة دواعى الشهوة وصدها . وعلى كل فرد أن يقوى شخصيته ويجتهد أن يبصر طريق الحق ومحجة القصد فيسلكها . فإنه أحب إليه أن يفعل ذلك وفيه العزيمة . وخليق هو أن يكون كما أراده الله — أعنى أن يكون حقيقة نفسه — لا أن يظل صدى غيره ، ومثال الغرائز الدنية والطبائع اللئيمة ومستودع العوائد الخبيثة والمصطلحات المرذولة الباطلة . وما منشأ الرجولة الصادقة إلا قوة العزم وفضيلة ضبط النفس — أعنى إخضاع القوى الحيوانية السافلة للمواهب الروحانية العالية .

وضبط النفس أمر عسير لا ينال إلا بالضمير ، فإذا قوى الضمير فى النفس وتغلب ، رسخت معه القوة المسماة ضبط النفس وتغلبت . نعم هو الضمير لا ينهض بالمرء شىء غيره ، وليس إلا به

يطلق الإنسان من أسر الهوى ويفك من أغلال الميل والشهوة . وهو الضمير يربط المرء بخير مصالح النوع البشرى ، ولا خلاف فى أن أصدق مصادر النعيم هو الكائن فى سبيل الواجب والنعيم يأتيك عفواً فى خلال الكد ، فيحلى مرارته ويحسن نهايته .

والضمير متى بلغ عنفوانه أمر أربابه أن يأتوا ما فيه أشرف ضروب السعادة ، ونهاهم عن إتيان ما فيه العذاب والشقاوة . قال هربرت سبنسر : قلّ بين الأمم المتمدينة (إن وُجد) من لا يسلم بأن سعادة البشر مطابقة للإرادة الإلٰهية ، وهى عقيدة أخذناها من أرباب الديانات فى كل عصر ، وقد قال بها كل واعظ ومرشد فلا غرو إذا عددناها قضية مسلّمة .

ولولا الضمير ما كان للمرء باعث على العمل إلا طلب اللذة ، فلا يأتى إلا ما وافق هواه وإن خبث وحرم ، ولا يترك إلا ما خالف هواه وإن حلّ وطاب . ونحن ما جئنا إلى هذا العالم لنتبع أهواءنا وننهمك فى لذاتنا ، وذاك مذهب ذميم وخطة مرذولة ينكره ويقاومه نظام العالم أجمع . والحقيقة أنه لا ينبغى قط إخضاع العقل للغرائز السفلى ، وإلا ذهب الوفاء من الأرض وذهب الإيثار والحياء والورع والعفة ، إلا شيئاً ضئيلا يجعله الناس من سلطة القانون وقاية .

وإن جنساً ركب فيه الخالق عقلا وهوى كذلك الجنس البشرى ، كان جديراً إذا حرم سلطة الضمير أن ينتهى أمره إلى الفوضى ويؤول إلى الخراب والتلف . ولقد وضح لنا ذلك فى الثورة

المجنونة التى اتسع خرقها واستفحل داؤها بين النهليست فى جرمانيا وروسيا ، وفيما أحدثه حرب الاشتراكيين فى باريز من الحريق والتلف . فمثل هذا المذهب لا يؤدى إلا الفساد المطلق يحلّ بالأفراد والحكومات والأمم ، أى بالعالم أجمع .

وما أرى لهذا الداء من دواء سوى تذكير الناس بالواجب وحضهم على أدائه . ولقد كانت وظيفة أسلافنا الأول اكتشاف الحق ، فلتكن وظيفتنا نحن تعليم الواجب وتعميمه . وتأييد العدل كذلك فإنما العدل رونق الفضيلة ، والأمر بالمعروف وإفشاء الخير فى الناس والبر والإحسان والمروءة . وقد جاء فى وصايا الحكماء كلمة حقيقة أن تكتب على كل حائط ، بحيث تراها لدى إجالة الطرف كل عين مبصرة ، وهى : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » قال ولهلم فون همبولدت : « إنه مما جرب المجربون فى هذه الحياة ، وأثبت الحكماء أنه متى أكب امرؤ على عمله ودأب فى شغله صافحاً عن ذكر السعادة والشقاء ، ناسياً أمر الألم واللذة ، جاءته اللذة والسعادة طيعة منقادة من خلال التعب ، ومن بين أثناء الكد والنصب . بل إن السعادة لتطلع أحيانا من ثنايا الهمّ والكدر ، وتنبع فى تربة الشقاء والفقر » .

قال جيتا : « ما الواجب ؟ هو أداء أعمال يومك » ، بيد أن هذه نظرة قصيرة . وقال أيضاً : « ما أحسن الحكومات ؟ هى التى تعلمنا كيف نحكم أنفسنا » . وقال بلوتارك للامبرور تراجان :

« اجعل مبدأ حكومتك فى صدرك ، وليكن أساسها قمع نفسك وقدع هواك » . وقال الأسقف هوكر : « سيجىء وقت تكون فيه الكلمة الرفيعة ، تصدر عن عطف ومرحمة وبر وتواضع ، أنفع وأنجع ، وأكرم ثمراً وأحسن أثراً من ثلاثة آلاف مجلد أملاها التهكم والهجاء ، يشحذهما الفطنة والذكاء » .

وجميل بالنفس أن يكون حاديها إلى العمل حب الله ورحمة الناس ، والشغف بالإحسان والرغبة فى الخير . وكم من فعال أصله حب الله والناس هو خير من ألف فعلة أصلها حب المال . فإن كل عمل فى سبيل الله موقظ فى الفؤاد روح النجدة والبطولة ، والإيثار والمروءة ، فله بذلك أثر خالد . وكل ما عمل من أجل الدرهم المضروب ، خليق أن لا يوقظ فى الفؤاد من تلك الخلال الشم ما ذكرنا ، فلا يكاد يحدث حتى يبيد وما له من أثر . قال أرنولد : « أتعرفون ما هو أفضل فى مذهبى من الثروة والجاه والشرف ، بل من الصحة والعافية ؟ هو الاتصال بذوى البرّ والكرم والوفاء فإنه ملىء أن يعود عليك ببعض برّهم وكرمهم ووفائهم » .

لكل امرئ عمل يؤديه .. لذاته كفرد من الأفراد ، ثم لمن حوله ، وما أضأل قدر الحياة ما لم يشرفها الواجب . لذلك قال مارك أوريلياس أنطانيوس قيصر الرومان ونموذج الفضل والكمال ، وسيد الواعظين فى تلك العصور : (فلتبرزن أيها الإنسان كل ما هو كامن فى طبعك من كريم الخلال وشريف الخصال .. والإخلاص والجد والوقار والنهوض

بالعبء واحتمال المشقة ، والصدود عن الملاذ والقناعة بما قسم الله وإن قلّ ، والصدق والصراحة والعطف والحنان والرحمة) .

وقد يجتمع العقل الراجح والقلب الخبيث فى رجل واحد ، ويكون منتهى الذكاء والفطنة حيث لا ذرة من الكرم والمروءة . وإنما مصدر المروءة والكرم من أشرف المواهب الإنسانية — أعنى الضمير ذلك الذى يدرك به ما لا يدرك بالحواس ، والذى يمتاز به الإنسان من سائر الخلائق . وقد قال داروين : (إن الضمير من حيث إنه باعث على الندم والتوبة والرجوع للحق والشعور بالواجب ، هو أهم ما يمتاز به الإنسان من الحيوان (١)) .

إن من الفلاسفة من يدعونا إلى التصديق بقوة المادة وسلطانها المطلق ، وأن لا نؤمن إلا بما تراه أبصارنا وتلمسه أكفنا ولا نعتقد إلا ما نفهم ! غير أنا لا نرى من الأشياء إلا الظواهر رؤية مبهمة متهمة غير مبينة ، كأنا ننظر إليها — على حد قول الشاعر — من وراء زجاجة مظلمة . وكيف للمادة أن تعيننا على إدراك أسرار الحياة ؟ نحن لا نعلم قط شيئا من أمر النفس وحركاتها وأطوارها وأحوالها ، ولا عن الحواس وعللها وأسبابها والعلاقة بين تلك الأسباب والنتائج ، إنما كل ما نعرف عنها أنها موجودة ثم لا سبيل بعد ذلك إلى فهمها .

قال العالم بار لبعض الفتيان وقد صرح له الفتى أنه لن يعتقد

---

(١) من كتابه « أصل الإنسان » .

إلا ما يفهم : « لا جرم ستكون أقصر الناس عقيدة » . ولكن سيدنى سميث قال ما هو أطرف من ذلك . صرح له رجل من الأجانب وكان قد ضمه وإياه جانب خوان بمكان « هولاند هاوس » أنه مادى العقيدة . وجىء على الخوان بلون شهىّ فقال سيدنى : « لقمة كريمة لعمرى وطعمة طيبة » فقال الرجل المادىّ : « أجل سيدى إنها حلوة المذاق لذة ! » عند ذلك أقبل عليه سيدنى سميث بتهكمه المعروف فقال : « عفواً أيها السيد . ألست تؤمن بالطباخ إذا كان ماهراً ؟ » .

أما إنه لابد لنا من الإيمان بكثير مما لا نفهم ، فإنا لا نكاد نفهم حتى من المادة إلا الظواهر ، فكيف بالروح وبتلك الأسرار المجهولة .. ما وراء المادة . أجل إن المادة ذاتها سرّ خفى تنكل دونه سوابق الوهم . انظر تلك العوالم القصية الفائتة كل عدّ وحصر تسبح فى أفلاكها ، وإلى الأرض كيف تدور حول محورها أثناء دورانها حول الشمس ، أفتعلم عن هذه الحركات شيئاً أم تؤمل أن تعلم ؟

قال باسكال : « ما دورة الأرض فى الفضاء على سعتها إلا شىء ضئيل بالنسبة لدورة الكواكب ، وما هذا الكون إلا نقطة فى صحن الطبيعة المنفسح . ومهما غلا ظننا بعظم هذه الأكوان فالحقيقة أعظم وأكبر ، والطبيعة فضاء مستدير لا حد له مركزه كل بقعة ، ومحيطه أبعد من أن يوجد ببقعة . فماذا ابن آدم وسط هذا المشهد الهائل ؟ بيد أن هنالك مشهداً لا يقل عن هذا غرابة وعجباً .. أعنى

ما هو دون الإنسان . فلينظر الإنسان إلى أصغر ما يقع عليه بصره .. إلى النملة مثلا . إن لها ليدين ورجلين وعروقا تسيل بالدم فيه كراته وعناصره . ولعمرى إن من يسلم ذهنه لمثل هذه الأفكار ، لجدير أن يصيبه الروع والوجل لهول موقفه بين الغايتين .. غاية الطفولة وغاية العظمة . ولكن بارئ هذه الأشياء يعرفها ، وليس أحد سواه يعرفها » .

وقد كان قونفيوشيوس علّم تلاميذه أن حسن المعاملة ثلاثة أرباع الحياة . قال : « خذ نفسك بالاستقامة ، ورضها على القصد ، واعلم أن اليقين والعفو والرحمة والاجتهاد والجد مدعاة لحب الناس ورضا الخالق . وأن الوقار والكرم والإخلاص والهمة والرأفة أركان الفضيلة ». تلك الكلمات جاءتنا من حكيم الصين .. واعظ العشرة الآلاف العصور كما كان يدعوه أتباعه وشيعته .. كالصدى البعيد المنشأ ينبئك عن حقيقة أصله . فحبذا الواعظ وحبذا موعظته .

وكم فى صحائف أعمال اليونان الأقدمين ومأثور أقوالهم من عظة لمتعظ ، وعبرة لمعتبر ، وحكمة تدل على طريق الواجب وتهدى إلى منهج الحق . كان سقراط يراه البعض رأس فلاسفة اليونان ومؤسس فلسفتهم ، وكان هو يرى أنه مكلف من قبل الآلهة بإيقاظ الشعور الأدبى فى صدور الناس . ولد سقراط ببلدة أثينا بثمان وستين وأربعمائة قبل المسيح ، وأخذ من علوم ذلك الزمن بأوفر نصيب . تعلم النحت وحذقه بعض الحذق ونال فيه شيئاً من الشهرة ، ثم دخل الجندية شأن كل

يونانى ، وكان العهد الذى أقسم عليه لبلاده مع سائر زملائه من الملحقين بالجندية هو « لا أرانى الله قط أدنس بالعار سلاحا شرفتنى بحمله بلادى ، أو أترك موضعاً كلفتنى حمايته » .

فأبلى فى جميع ما شهد من الوقائع بلاء حسنا . فلما كان فى بعض تلك الحروب وقد خر السيبياديز جريحا ، سعى إليه سقراط فحمله وسلاحه ، فأعطى التاج الحربى جائزة على صدق دفاعه . وليس دون ذلك بلاؤه فى الحرب الثانية ، إذ نجّى زينوفون وقد دلفت إليه رسل المنية ، وامتدت نحوه يد الأجل فصار إلى حيث كان بالمأزق المتلاحم نضوا طريحا ، ولقى[1] جريحاً . فاحتمله على كتفه وعاد به إلى المأمن بين حراب مشرعة ، وأشلاء مقطعة ، ينفر عنه نواهل[2] القنا ، كما ينفر الوارد[3] نواهل القطا[4] .

فلما اشتغل بعد ذلك بالقضاء أبدى من الشجاعة مثلما أبدى من قبل فى الحرب ، وجعل يحارب الآراء المعارضة بمثل تلك البسالة التى حارب بها الأعداء من قبل . وكان يقف فى وجه كل جبار عنيد وقفته أيام الجهاد والغزو فى وجه العدو المبارز ، والقرن المناجز . ولما حوكم القواد عقب موقعة أرجنيوزا على تركهم جثث قتلاهم ، قام

---

(١) لقى بمعنى ملقى .

(٢) النواهل جمع ناهل وهو الشارب والنهل الشرب الأول .

(٣) الذى يرد الماء .

(٤) القطا طير صغار ترد الماء وهى فزعة .

سقراط وحده يدافع عنهم . غير أن الشعب كان محتداً متهيجاً فطرد سقراط من مجلس القضاء وحكم على القواد .

ثم إن سقراط انصرف بعد ذلك إلى تعليم الناس . فكان يقف فى الأسواق ويدخل الدكاكين ويزور المدارس كيما يعلم الناس مذهبه فيما يختص بنطاق التفكير والعمل . وكان قد ظهر فى عصر حيرة وشك ، فاجتهد فى صرف الناس عن مباحثهم الطبيعية التى كانت تحدو بهم إلى ظلمات الشك والحيرة . وكان اهتمام القوم إذ ذاك بنظرية « هل للحياة قيمة تستحق أن يعيش لها المرء » كاهتمامهم اليوم . فدعاهم سقراط إلى صرف أفكارهم عن هذه المسائل إلى نفوسهم وضمائرهم ، قائلا إنه ليس لسعادة الدارين من سبيل سوى الصلاح والاستقامة .

واستمر سقراط يعلم ، وأصبح له من العقلاء شيعة وأتباع . وعرض عليه أرستباس مالاً كثيراً فرفضه . ولم يتخذ سقراط التعلم متجراً ومرتزقاً ، وإنما طريقاً لنشر الفضل وبث الحكمة . وكان يقول : إن أحسن ما يرجو من الجزاء هو أن يرى الناس قد انتفعوا بإرشاده ونجع فيهم وعظه .

وكان لا يرى فائدة فى قراءة الكتب وتفسيرها لتلاميذه ، بل كانت طريقته فى التعليم هى المناقشة والمحاجّة . وكان يقول : « الكتب لا تسأل ولا تجيب ، فهى لذلك عاجزة عن الإفادة ، وما كانت قط لتعلمنا شيئاً جديداً » . وكان يحاول أبداً فى تعاليمه

أن يحلل الأشياء إلى عناصرها الأولية حتى يصل إلى اليقين . وكان لا يقنع إلا به ولا يرى ما دون اليقين حقيقة . وكان يؤمن بوحدة الفضيلة ، ويرى أنه قد يمكن تعليمها كبعض العلوم . ويرى كذلك أن لا فلسفة إلا التى تبصرنا الواجب وتقوى إيماننا . وكان يمقت الظلم والحمق على اختلاف أشكاله ، ولا يدع فرصة تمر به إلا ويهجنهما ويزرى عليها ، ويحتقر الأدعياء ولا سيما من يدعى القدرة على حكم البلاد . ويقول إنه لا يقدر على ذلك إلا العقلاء وقليل هم .

ولما بلغ الثانية والسبعين سيق إلى دار الأحكام وعرض على القضاة ، وذكر أصحاب الدعوى تهمتهم كما يأتى : « إن سقراط من جناة الشر ومفسدى الفتيان ، وهو لا يؤمن بالآلهة التى تؤمن بها الحكومة ولكنه يأتى بآلهة جدد » . فحوكم على ذلك وأمر به أن يعدم . ثم زج فى السجن حيث لبث ثلاثين يوماً يحادث أصحابه فى أغراضه المألوفة ، وقدم له كريتو وسائل الهرب فأبى وجعل يتكلم عن خلود النفس وعن الشجاعة والمروءة والاعتدال والقصد ، وعن الجمال المطلق والخير المطلق ؟ وعن امرأته وأولاده .

وجعل يعزى أصحابه وإنهم من شدة الحزن ليبكون ، ويعذلهم أرفق العذل عن شكواهم من ظلم القضاء . قائلا إنه قد دنا أجله على أية حال ، فماذا شكواهم ؟ وأنه قد طعن فى السن وكان لا محالة عما قريب هالكا . ولم يعلم قط من استقبل الموت ، كباب إلى دار

النعيم بمثل عقيدة سقراط ويقينه ، ولا من أعد للموت مثل جميل صبره وحسن ارتياحه . وأخيرا حلّ الأجل وعاطاه الجلاد كأس الذعاف فتجرعه جلداً صبوراً ، وقضى رحمه الله فى أهدأ بال وأسكن جأش . وقال فيدو : « كذلك قضى صاحبنا ذلك الذى لا أكذب إن قلت إنه كان أعقل من رأيت وأعدل الناس وأفضلهم » .

قال المستر لويز : « ما زالت الأجيال المتعاقبة تقدس ذكر سقراط وتترنم بحديث مناقبه ومصائبه ، ولكنهم لم يتعظوا بأقواله ، ولم يتخذوه قدوة وأسوة ، لقد صار اسمه مثلا يضرب ، فياليته صار عاملا مؤثراً وقوة فعّالة ! » .

لم يؤلف سقراط أسفاراً ولم يحرر صحفاً ، بل كل ما علمناه عنه وورثناه من حكمته إنما جاءنا عن تلميذيه أفلاطون وزينوفون اللذين قد خلّدا ذكر أعماله وعظاته وظلاماته وموته . وأدركه أفلاطون وصحبه عشر سنين وشرح مذهبه فى ذلك السفر الجليل المسمى « المحاورات » ، الذى يتعذر على قارئه أن يميز كلام سقراط من كلام أفلاطون . ولما فرّق بينهما الموت رحل أفلاطون وكان قد بلغ الأربعين إلى جزيرة صقلية ، حيث عرف ديونيسياس جبار سيرقوس ، وجرت بينهما مناقشات أيد فيها أفلاطون جانب الحرية فى أشد جرأة وصراحة . وكان أفلاطون أشجع الناس فى تأييد الصواب لا يخشى فى الحق لومة لائم ، فأنذره جبار سيرقوس القتل ،

ولكن ديون أخا الجبار شفع له عند أخيه حتى أنقذه ، ولكنه أمر به أن يباع بيع الرقيق فاشتراه صاحب له ثم عتقه .

وعاد أفلاطون إلى أثينا وأخذ يعلم الناس كأستاذه سقراط بلا مال ولا أجر . ولسنا فى حاجة إلى ذكر ترجمته ، بل حسبنا القول إنه أنفق عمره فى بث العلم والأدب وإظهار الحق وإزهاق الباطل ، وكان يقول إن أركان الفضيلة أربعة :

١ ـــ الحزم والعقل .

٢ ـــ الشجاعة والثبات والصبر .

٣ ـــ القصد والتبصر وضبط النفس .

٤ ـــ العدل والصلاح .

وكان يعد هذا التقسيم أساس فلسفته الأدبية . وكان يقول : « دع الناس جميعا رفيعهم ووضيعهم ، فقيرهم وغنيهم ، سعيدهم وشقيهم ، يؤدون الواجب ثم يقعدون بعد ذلك آمنين مطمئنين » .

أى درس للخلف والذرية والأجيال الآتية فى هذه الكلمات !

ووهب أفلاطون آخر أيامه للعزلة بمدرسته ، وكانت سلوته إذ ذاك تأليف « المحاورات » التى ما برحت موضع إعجاب الناس وقد سمّى من أجلها ولسائر ما أبدى من العقل والفضل أفلاطون المقدس . إذ كان أولع الناس طراً بالحقائق ، ذاهباً إلى أن هذا هو رأس الحكمة ، وما يجب أن يكون أول أغراض المرء فى هذه الحياة .

وكان كأستاذه يسند إلى العقل الأكبر[1] صفات الخير والعدل والحكمة والتداخل فى جميع شئون البشر . وكان فى قلة ميله إلى النظم كالحكيم كارليل ، وكان لا يحمد منه إلا ما نظم فى الحكمة ، وهذا أحق أن يدعى فلسفة منظومة لا شعرا . وليذكر القارئ بعد أن أفلاطون عاش قبل المسيح بأربعمائة عام ، وإن كولريج سمّاه بشير العهد المسيحىّ ونبيه . وأن الكونت ده ميستر كان يقول : « لا ينبغى قط أن ندع مسألة جليلة إلا وننظر رأى أفلاطون فيها » .

إن التوراة لتحث على غاية من الفضل بعيدة المنال جداً ، على أنها ممكنة . ولكن أين الذى يروض النفس على سلوك تلك السبيل ؟

وعسير بلوغ هاتيك جداً تلك عليا مراتب الأنبياء

إن الإنسان ليعرف للكمال فضله ، ويقعد به عنه ما دونه من المتاعب والمشاق ، وميل النفس إلى الهوى وولوعها باللذات . ولكن الواجب أولى أن يعمل ، والحق أحق أن يتبع ، وسبيل الهوى مجاز إلى الخسارة ومعبر إلى التلف ، وسبيل الحق آخرها الفوز وغايتها الفلاح . انظر إلى هذه الآية ماذا تضمنت من الأدب والحكمة ، وماذا ضمنت لمتبعها من الخير والسعادة . « أتقن عملك وابذل فيه جهدك كيفما كان » ، والحق يقال لا يعدم باذل الطاقة حظه من الربح مهما كانت قسمته ، ولكل مجتهد نصيب .

---

(١) المراد بالعقل الأكبر الله سبحانه وتعالى .

ويحكى أن رجلا بلغ به الغم أقصاه ، واليأس منتهاه ، فصاح بملء فيه (إنه لا يفيدك أن تكون برًّا صالحاً ، فإن البر مشقة فإن أدركته بعد الجهد لم يغنك شيئاً) . فقبح والله ومقت ، ورذل مثل هذا القول فى حق الصلاح والخير . إنه ليس أحد إلا وفى وسعه أن يعمل بعض الخير ، وحتم على كل قادر على الخير أن يفعله . ولا يعذر امرؤ على ترك فعل الخير إلا إذا عذر على تركه الحياة انتحاراً ، وكلاهما واحد .

علينا أن نلزم الصدق فى صغير الأمر وكبيره ، وأن نطيع أوامر الضمير فنسلك سبيل الرشد وطريق الواجب ولو وجدنا . فلو لم نفعل ذلك إلا حياء من أنفسنا واحتراما لها ، لكان حسبنا بذلك باعثاً . وأين الذى لا يعجب لجواب العبد الرفيق إذ سأله المشترى فقال له : (أرأيت إن أنا اشتريتك أتلزم الصدق والأمانة ؟ فقال العبد : أنا ألزم الصدق والأمانة سواء اشتريتنى أم لم تشترنى .

ولما خطب العالم ماكليود جماعة العمال فى كنيسة جلاسجو ، جعل الأخلاق محور كلامه وقطب خطابته . وقال : إنها يجب أن تكون الغرض الأول لكل إنسان شريف ووضيع . وإن أنفس ما ورثه الأمير البرنس ألبرت هو الأخلاق . وقال كذلك : إنه يعرف عن كثير من الفقراء الضعاف أنهم يرون إحرازهم الأخلاق أمراً محالا فهذا ليس بصحيح ، وما كان قط ليسلم بمثل هذا القول ، إذ أنه ليس إنسان مهما بلغ من فقره إلا وهو بفضل الله قادر على أن يورث ذريته

أنفس كنوز العالم ، أعني الأخلاق . حتى يقول بعده خلفه : الحمد لله لقد كان أبونا صالحاً وكانت أمنا تقية .

وإنما تتألف الأخلاق من واجبات صغيرة تؤدى بصدق وأمانة — من عزفات النفس عن الهوى ، وصدفات النفس عما يلذها إلى ما يلذ غيرها ، وتضحياتها فوائدها من أجل فوائد الغير . ومن الصدقات والحسنات والطيبات وأداء الفرائض والواجبات . وفى التربية المنزلية أساس الأخلاق . وسواء كانت الغرائز الفطرية إلى الخير أو إلى الشر ، فليس يعدم التهذيب المنزلى إصلاحاً لها وتقويماً ، « من صدق فى صغير الأمر صدق فى كبيره ، ومن كذب فى صغير الأمر كذب فى كبيره » . الإحسان سائقة الإحسان ، والصدق والوفاء يؤديان أكرم ثمرة من الصدق والوفاء . هذه أقوال أريد بها تفهيم الواجب والأخلاق ، ولعل فيما يراه المرء من طيبات الكرام وحسناتهم ما هو أحسن شرحاً لهذين المعنيين ، وأوفى بيانا . وقد كان العِيان أنفع من السماع ، والفعل أنجع من القول ، والعمل يغرى بالعمل ، وقلما ينتج القول إلا قولا . والعمل الصالح يأخذه المرء عن الأخيار ويفعله هو أبقى على الدهر من فاعله وأدوم .

فإنه لا يضيع الجميل أبداً . نعم لا شيء يفنى ، وما الحياة وما الموت إلا نقلة من دار لدار ، وتغير من حال إلى حال . وما من عمل طيب أو قدوة حسنة إلا وهى باقية مدى الأزمان حية فى الناس . فبينما الأجساد تبلى وتزول ، إذ تترك الأفعال طابعاً على حياة

الخلف كالنقش في الحجر ، وتقوّم خلق الذرية وتقوى إرادتهم . والعمل الصالح لا يقاس بمقياس الزمن ، وإنما هو مشترك بين الآتي والحاضر . وحسن أثره وكريم ثمره مقسم بين الحالّي والغابر . وقد رأينا الصالحة(١) الفذة(٢) قد رفعت قرية بل بلدة بل شعباً . قال جيتا : « اغتنم اللحظات فإن كل لحظة إلٰه قادر » أما إن أكرم ثمار الإنسان هي أفكاره الطاهرة الصالحة ، تلك التي متى تكونت فخرجت إلى حيز الفعل ، امتد أثرها النافع على متتابع الأجيال أبد الدهر ، وأنتجت أحسن النتائج ، كالبذر وهو الضئيل القليل ينبت عنه الشجر الباسق والدوح(٣) العظيم . وما أجمل ما قال وردذورث شاعر الطبيعة والحكمة في وصف الواجب :

« أيها المشرع(٤) القوى الرهيب ، وأنت مع ذلك محسن كريم . تالله ما إن رأينا أحسن من بشرك وابتسامك . أما إن الزهر ليضحك إليك من خلال أوراقه ، وأن المسك الذكّي ليضوع من مواطىء قدميك . وإنك لتهدى النجوم في أفلاكها . وإنما بفضلك ترى السموات القديمة غضة الرونق صحيحة الأديم » .

---

(١) أي الفعلة الصالحة .

(٢) الواحدة .

(٣) جمع دوحة وهي الشجرة الكبيرة .

(٤) يخاطب الواجب .

(الفصل الثانى)

(الواجب ــ العمل)

من أدرك قيمة الواجب وعرف خطارتـه ، كان خليقـاً أن لا يقعد عنه لحظة ، وأن لا يهدأ حتى يحقق العقيدة بالفعل ويحول الرأى عملا . والأعمال يعلم الإنسان هى كل ما نقدر عليه . وهى التى منها يتكون مجموع عاداتنا بل مجموع أخلاقنا .

ثم ليعلم القارئ أنه قلما يكون طريق الواجب سهلا ذلولا ، ولكنه كثيراً ما يكون مملوءا بالموانع والعقبات . وكم من مبصر طريق الرشد عاجز عن سلوكه ــ وكم من سريع النظر إلى الحق بطىء القدم عنه ، وكم من لبيب مقصر ، وعالم غير عامل . مثل هذا يهاب طريق الكد ويراه كأنه ملئ أسوداً ضارية ، وذئاباً عاديه . فهو غير ملىء إلا بالمنى والأحلام ، ثم لا تراه يصنع بعد ذلك شيئاً .

لا يكون المرء مليئاً بإحراز الكمال ، حتى يحارب شيئين فيتغلب عليهما ــ هواه وذم الناس . فأما من لا يزال يسأل نفسه عقب كل مكرمة يأتيها وكل واجب يفعله : « ماذا عسى يكون

رأى الناس فيما أتيت ؟ أراضون أم ساخطون ؟ » فذاك خليق أن لا يأتى مكرمة ولا يؤدى واجباً . ولكن من يقول « أهذا هو الواجب ؟ » فذلك الموفق إلى الهدى الماضى على سنن الرشاد ، الفاعل الخير رضى الناس أم سخطوا . لا يضره الذم واللوم ، كلا ولا القذف والقذع ، لا ولا الهزء والسخرية ، ولا الوعيد والتهديد .

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى أطنين أجنحة البعوض يضير

هذه الهمة القعساء والجرأة القسورية والفتوة والبطولة ، وأما الذى يصده عن الحق مخافة الذم فذلك منخوب القلب خوّار العود ، أذلّ من نقد وأجبن من ابن ماء .

أول ما يتعلم الواجب فى البيت . فإن الطفل يخرج إلى العالم عاجزاً مفتقراً إلى معونة غيره فى أمر صحته وغذائه ، وتربية جسمه وعقله ، ثم يأتيه الفهم بعد حين . فإذا أحسن أهله القيام عليه تعلم الطاعة وضبط النفس ، واستشعر الرحمة والعطف ، وأبصر طريق الواجب والسعادة . إن لكل امرئ إرادة ، فأما سوء توجيهها أو حسنه فذلك بحسب ما يكون من سوء تربيته أو حسنها .

وخصلة الإرادة تسمى القصد ، فمما قيل أن تعويد الطفل حسن القصد منذ أول طفولته أمر واجب . قال نوفاليز : « تسألوننى عن الأخلاق » ، إنما الأخلاق هى الإرادة الموفقة التامة التكوين ، الإرادة إذا تم تكوينها ثبتت على الزمن ودامت مع العمر .

فإن الرجل الصادق المعقود النية على الخير متى مضى على عزمه ، وتشبث بمراده ، لم يبل بمدح أو ذم ، ولم يحفل أصاب فى سبيله لذة أم ألما . بل حسبه برضا الضمير ثناء حسناً ، وبخدمة الحق والمروءة فائدة وغنما .

والإرادة إذا تدبرتها مجردة عن التوجيه ، إنما هى الثبات والمثابرة والاستمرار . ولكن الإرادة القوية إذا لم توجه للخير ، كانت لا محالة من أكبر عوامل الفساد والشر . والإرادة القوية هى فى صدور الجبابرة شيطان مريد . وهى مؤيدةً بالسلطة لا تلبس غلا ولا قيداً ، ولا تلزم مدى ولا حدا . توقد فى صدر الجبار نار الشر حتى يوقد نار الحرب ، وكفى بها ضروساً حطمة لا تبقى ولا تذر . وهى الإرادة المطلقة أنتجت للعالم أمثال نابليون والإسكندر . لقد علمنا الإسكندر يبكى إذ ملك الدنيا فلم يجد بعد ما يغزو ويفتح . ورأينا نابليون وقد غزا القارة الأوروبية يندد قوته على ثلوج روسيا ، وهو القائل : « بالغزو أدركت مجدى ، وبالغزو أستبقيه وأصونه » . ولكنه رجل غادر لا عهد ولا ذمة ، فما هو إلا أن فرغ من خطة تدميره وإفساده ، حتى نبذته أوروبا ولفظته من حالق .

أما الإرادة القوية يشفعها القصد الشريف ، فلها من حسن الأثر على مثال ما للأخرى من سوء العاقبة . إذ أن صاحب الأولى يوقظ بالقدوة الحسنة نفوس الغير ، ويشعل نور الهداية فى ضمائرهم ، فهو يستدرجهم إلى مذاهبه فيمعن بهم فى طريق الخير ، وهو يغرى

بإقامة الحق وهدم الباطل . والإرادة القوية تسم كل عمل بطابع القوة ، ثم تصبح عادة وديدنا ، ويصبح صاحبها قد مجّد أهله وعشيرته ، وشرّف شعبه وأمته . ويصبح وهو للمحجم الهيّابة سرور وتأييد ، وللوانى الكسول عتاب وتفنيد . ينهض همة الأول بالأمل . وربما استنهض الثانى بالمثال الأمثل .

وإن هناك خلاف ذوى الإرادات القوية (السيئة والحسنة) أناساً كثراً ضعاف الإرادة أو مسلوبيها ، لا إلى الشر وجهتهم ولا إلى الخير ، ولكنهم كصحف خالية تتلقى كل رأى ثم لا تثبته ، وأوعية خاوية تلتقف كل معنى ثم لا تعيه . وكأنهم وقوف أماكنهم لا يسيرون ولا يرجعون ، وما رأيهم إلا ريشة فى مهبّ الريح .

من حيث دارت دار يطلب وجهها فعل المقاتل جال ثم استقبلا

مثل هذه النفوس يضرب عليها كل عازف ، ويحدو بها كل حاد ، فهى لا تتمسك برأى ولا تعرف الإخلاص والعقيدة . ومن أرباب هذه النفوس يتألف الجمهور فى كل أمة — أولئك الخوّارون الضعفاء ، الخضّع الأذلة ، لا اكتراث ولا عناية ولا صدق ولا إخلاص .

لذلك كان من أوجب الواجب الاهتمام بتقوية الإرادة وحسن توجيهها . فإنه متى فقدت الإرادة فقد الاستقلال والثبات والشخصية . والإرادة هى التى ليس إلا بها يقوى الحق ويتأيد ،

وليس إلا بها تأخذ الآداب منهجها وتسلك الفضيلة مستنّها ، وليس إلا بها يستوى عمود صلاح الدين والدنيا فى نصابه ، ويقوم على أساسه ، والتى لولاها لم نعد أن نكون آلات فى أيدى المكرة الفجرة .

قال لوك : « إنما فى الصغر تغرس الإرادة . فإنه الوقت يوسع فيه نطاق العقل ، ويملأ بالذخر الوافر من الحقائق ، وتذعن فيه الشهوات لحكومة العقل ، ويغرس فيه فى صدورنا من صحيح المبادئ ما يكون لنا فى المستقبل خير هاد ومرشد ، حتى ترى أثره الحميد بادياً فى عامة أعمالنا صغارها وكبارها . ولكن ليس فى غير الصغر يمكن ذلك ، فإذا أضعنا الفرصة أضعنا الخير ، وجررنا على نفوسنا الجهل والإثم ، إذ نجعل للشهوة سلطانا علينا لا قدرة لنا عليه ، ولا طاقة لنا به » .

وجرت محاورة بين لوك واللورد شافتبرى فقال الأخير : إن مقر الحكمة القلب لا الرأس ، وإن الذى يملأ سيرة المرء عيوبا ، وعمله ذنوبا ، إنما هو الهوى لا قلة المعلومات . فإن كثرة المعلومات والمعارف لا تقوم الأخلاق وحدها ، ولا تقوى الإرادة ، وإنك لتبصر العالم النحرير يستقصى المسألة بحثاً وفحصاً ، بصيراً بمسالك الصواب ، غواصاً على موضع الحجة ، يتهم فى الكلام وينجد ويفتق ثمار العلم ، ويزف أبكار المعانى ، ثم لا يمضى بعد ذلك نية ولا ينفذ

عملا ، فكأنما العلم قد أصبح وهو غلّ لربه عن الفعل ، حائل دون العمل . ولكن الموفق من مضت إرادته فى ضياء هداه ، وانبعثت عزيمته فى نور تقواه . فذلك حقيق أن يبلغ من طريق الفوز والفلاح أقصاه .

أجل ليس فى تعلّم الآداب ، والتبصر فى ضروب الكلام ، وأساليب الجدال والمحاجة من الفائدة ما ينسبه إليه وهم الواهمين ، ولا علاقة قط بين كثرة العلم وبين الصلاح والتقى ، بل لكثيرا ما ترى العلم يفسد التواضع ويجعل الكبرياء مكانه . وقد كان معظم معلمى الأمم ومنهضى الشعوب من غير ذوى البسطة فى العلم والمكانة فى الأدب ، وكثيراً ما بلغ الأدباء بالأدب عليا مراتب الرأى والتفكير ، ولكنهم قلّما بلغوا عليا مراتب البرّ والتقوى .

ليس فى الطاقة إنهاض الناس أمما وشعوبا كما كانت ترفع الجبال فى الأعصر الجيولوجية الأولى . ولكن نهضة الفرد ممكنة ومنها تتألف نهضة المجاميع . وقد تؤثر فى الناس أقوال الوعاظ من خارج ، ولكن الأثر الأعظم يأتيهم من ذوات أنفسهم . والمرء إن لم يساعد نفسه أوشك أن لا ينتفع بمعونة غيره . وكما أن قوة البدن تأتى بإجهاد أعضائه وتمرينها ، فكذلك النفس تقوى وتشتد وتصح وتسلم برياضتها على الخير ، وتعويدها الطاعة والصدق والعدل والمروءة » .

لا يكاد يكون بين التعليم المدرسى وبين الفضيلة صلة . وليس لتربية الذهن تأثير فى سلوك الإنسان ، ولا للحقائق الملقاة فى الذاكرة ، والمواعظ المصبوبة فى الحافظة ، قدرة على قمع الشهوات الفاسدة والأميال الخبيثة . وما الذهن إلا آلة تدفعها من ورائها عوامل وقوى مختلفة .. الانفعالات والحزم وضبط النفس والخيال والتحمس . ومعظم هذه مما تولده الحياة المنزلية لا المدرسية . فإذا كان المنزل خبيثاً ساقطاً مرذولا ، عديم المبادئ صفراً من القوانين ، لم يبق غير المدرسة لتعليم النظام والطاعة . على أن الدار خير مغرس المكرمة ، وأطيب منبت الفضيلة . إذا كانت حوادث المنزل أدنى إلى أفئدتنا ، وأوقع فى نفوسنا من حوادث المدرسة . فلا غرو أن كان البيت مقياس الآداب وعنوان الأمة .

تربية الصغار وظيفة الآباء ، وطاعة الكبار واكتساب المكارم وظيفة الأبناء . والتعليم بعد أمر أساسه السلطة والاحترام . والمسيحية كما قال جيزوت أكبر ما رأى العالم من مدارس الاحترام والطاعة ، والتعاليم الدينية وحدها تبث روح الإيثار والإحسان والرحمة بفضل إفضائها إلى موضع الضمير . وهى التى تخفف أثقال العيش ، وتهون متاعب الحياة ، وتشعر القلب فضيلة الإذعان والتسليم والتوكل والإقرار بحكمة الله وعدله ، مهما عنف البلاء بالمرء وأفرط عليه المصاب .

قال كَبير من الكتاب: «الحرية أهمّ أغراض التربية ، وأعقل ما يكون الغلام وأدناه من الرجولة ، إذا كان قد أوتى من التربية ما يجعله مشرع نفسه ، يستغنى بقوانينها عن سائر القوانين والشرائع» وقال دوبانلوب : «لأحترمن من الحرية الإنسانية فى الطفل ، ولأجلّنها ولأرينّها فيه أعظم حرمة علىّ منها فى الرجل ، لأن الرجل يستطيع أن يذود عن حريته ويذب ، ولا يستطيع الوليد ذلك ، وما كنت قط لأسيء إلى الطفل بعدّيه آلة أحركها كما أشاء ، وعجينة أشكلها كما أشاء ، فتخرج من يدى وعليها طابع إرادتى ، وخاتم مشيئتى» .

على أنه ينبغى أن يشعر الطفل مع الحرية فضائل الطاعة وقمع النفس وحكومتها . وحكومة النفس هى رأس الآداب وأشرف غايات التربية ، وهى لا تستفاد بالتلقين بل بالمثال والقدوة . قال بونالد : أول دروس الحياة عادات لا حجج وبراهين ، وأُسى[1] لا معلومات ومعارف . والمثال الحسن أوعظ ولا شك من الخطبة المسهبة ، وذلك أن المثال بالفعل والفعل أصعب من القول ، وأنجع الأدوية أبطؤها سرياناً .

---

(١) بضم ففتح جمع أسوة واللفظة ليس معطوفة على براهين ولكنها خبر لمبتدأ محذوف والتقدير وهى أسى لا .

ومن ثم كان العمل الصالح هو قوام الفضيلة . فأما النية الصالحة فلا تكفى بمفردها من حيث إنها قلما تكون وحدها مثمرة ، إنما المنتج المثمر هو العمل الصالح يثابر عليه ويواظب . وكل ما عمل باجتهاد وجد حرىّ أن يحدث فى نفس الناظر المتأمل قوة صامتة عظيمة الأثر . وقد قال القسيس كانون ليدون فى خطبته الفتيان بكنيسة سانت بولس : إن الشغل أجلّ أغراض الحياة وأعظمها. قال : « حياة الإنسان مؤلفة من العمل والصبر والمثابرة ، وثمرتها بمقدار ما يبذل من الكد والجلد والمواظبة ، ولكن ذوى الأعمال البدنية ليسوا وحدهم ذوى العمل الصادق ، بل أولو الألباب والأفكار صادقون كذلك . لأن الرأى بذرة الفعل والفكر عمل كامن ، ما هو إلا أن يبدو حتى تراه عملا ظاهراً مرئياً . فأما الكسل والفتور وقضاء العمر فى هجعة طويلة مستمرة ، فمفسدة للدين والحسب ، مضيعة للشرف والكرامة ، إذ ليس للحياة من مشرّف سوى العمل » .

العمل النبيل خير أستاذ ومهذب ، والكسل يبلى النفس والضمير والجسد . ولعل تسعة أعشار ما بالناس من بؤس ومنكر إنما أصله الكسل . ولولا العمل ما كان ثمت تقدم ولا رقىّ وليس فى العالم آفة هى أنكى وأوجع من أن يملك الإنسان مزية خير لا يقدر أن يعطى الغير منها ، ولنتصور أيها القارئ أن رجلا أوتى الخلود فى

شباب ونضرة ، فبقى ينظر إلى الناس حوله تدرج وتفنى وإنه لعاجز أن يمنحهم من بقائه وقوته ، ويهبهم من شبابه ونضرته . حتى بادوا جميعاً وتركوه وسط هذا الكون العظيم وحده . ماذا ترى تكون حاله ؟ ألست تراه كأنه يشتهى الموت فرارا من حال كهذه ؟ قال كارليل : « إذا انقطع أضعف الضعفاء لأمر ما ، فإنه لا محالة صانع فيه شيئاً . بينا ترى أقوى الناس وأقدرهم يخيب ألبتة ، إذا هو قسّم قوته على أمور شتى » .

أتعتذر بالمشاق والمصاعب عن الكسل ؟ لم لا تروض بالجد الصعاب ، وتذلل بالكد العقاب[1] ؟ إنه لا رقية أشفى من الشغل ، وإنه لا صدأ مثل الكسل . قبحاً له إنه لأنهك للقوى وأبلى للعافية وأبرى للجسد وأوهن للعقل من المبرد للحديد ، والحر للجليد . قال جليل من العمال : « لخير لى أن أبلى عملا ، من أن أذوب كسلا » وقال شلر :« إنه وجد أكبر نعيم الحياة فى أداء بعض الأشغال الجسدية » . وقال أيضاً : « إن الرجل الصادق إذا بدأ العمل لم يحتج إلى أن يكون فى عمله من صفات الجمال ما يعينه على أدائه » ذلك لأن منتهى الإخلاص يسلب المرء بصره إذا عزم ونوى ، وشعوره إذا همّ فمضى .

---

(١) جمع عقبة .

وأصعب المشاق تعرض من حيث لا ترتقب ، كأنما يرسلها الله ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، فإذا تجلد لها المرء وتصبر وثبت ، أفاده الثبات راحة وروحاً ، إن ما ترويه الأقاصيص من حروب الأبطال ، لهو عين ما يقع كل يوم فى حياة ابن آدم ، فالأبطال نحن وأحزانهم أحزاننا ، وهزائمهم هزائمنا ، وفتوحاتهم فتوحاتنا .

ولعل مدرسة الشدائد خير مدارس الأخلاق والمبادئ . ومتى ضاقت الشدة والمحنة كان قراها عند العاقل الصبر والتسليم . ألم يقل أرسطو : إن أكثر السعادة كائنة فى النفس وقواها ، لا فى الأمتعة والأشياء ، ومصارعة الشدائد أملأ من كل شيء بإذلالها وقهرها . والعزيمة الصادقة تملأ القلب ثقة بالفوز ، فتشحذ العقل وتسلّ الهمه وترهف الحواس حتى يغدو الرجل الفريد من نفسه وحدها ، فى جحفل لجب ملئ برياضة كل صعب واقتحام كل عقبة .

إنه لو جمعت سير الذين أضاعوا الفرص فتجرعوا بذلك الغصصَ فى سفر ، لكان مملوءاً بالعظات ، وكان خير عبرة المعتبر . قال أبنزير إليوت : « لا أحد جامعاً للعافية والقوة ، ملاق بؤسه إذا هو لم يجر البؤس على نفسه . ويا حبذا لو يحصى عدد الخائبين من ذوى الجد والعزيمة فى كل ألف ! أنا لا أحسبه يزيد على واحد فى المائة » . ليست الخيبات التى يلقى المرء قبل نجاحه خيبات ، إنما هى سلالم النجاح ، وهى انتصارات فى ثياب هزائم » .

والذى يطلب الخير[١] بلا كد ، ويبغى كرائم العيش ومطايب الحياة بلا همة ولا سعى ، جاهل مأفون ضعيف الرأى والعقل ، حرىّ أن يقضى العمر بالتمنى والتشهى والتلهف والتأسف والتحسر والتضجر .

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

ولو لم يكن من فضل العمل على الكسل إلا أنه ينبه قوى النفس ، ويكسبها للحركة نشاطا وحدة ، على حين ترى الكسل ينيمها فيضعفها ، لكان حسبه بذلك فضلا . وإنا نزن قيمة ما يبلغنا العمل من لذة الظفر بالبغية ، ونيل الوطر بقيمة اللذة المستفادة من نشاط النفس وإعمال الذهن أثناء العمل ، لرجحت أخرى اللذتين بالأولى .

من حسب أن اللذة فى الكسل ، وأن السعادة فى الونى والتراخى ، كان واهما مغرورا . فإن اللذة لتفر من الكسل ، وإن السعادة لدون متناول الونى والتراخى . إنما اللذة والسعادة من ثمار الجد والكد ، لا الإهمال والتواكل .

---

(١) هو المال قال الله تعالى : ﴿ إنه لحب الخير لشديد ﴾ يريد عز وجل حب المال والشديد والمتشدد البخيل قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

يقول الشرّيون(١) إن الشغل .. أو وجود الضرورة إلى الشغل — هو عدو الإنسان ، فأحسن ما ورد في الرد على هذا المذهب قول المفكر كارو حيث يقول : « إن بالنفس البشرية غريزة قوية تدفع الإنسان إلى العمل ، ثم(٢) بواسطة العمل إلى لذة غير مرقوبة ، أو سعادة غير منتظرة ، أو فرض محتم ، هذه الغريزة هى غريزة الحياة نفسها ، وفيها تفسير معنى الحياة وبيان كنهها ، وهذه الغريزة بينا تقوّى فى نفوسنا الشعور بالحياة ، تراها مع ذلك تدلنا على أرقى أنواع الوجود ، وأنبل أساليب الحياة — على الملاذ الطاهرة النقية التى يجدها الإنسان فى صدق اقتحامه العقبات ، إلى غاية من الفلاح والفوز — على نشاط جدير أن ينهض بالحياة إلى أرقى درجها — نشاط يزهق كيد المكرة ، ويقمع شر الفجرة ، ويحارب الرذيلة أينما كانت ليموحها ، ويذلل كل صعبة شموس من العلم وكل ناقرة جموح من الفن — وقصارى القول إن هذه الغريزة غريزة الحياة تدلنا وتأخذ بأزمتنا نحو العمل صديق(٣) الإنسان ، ومنبع عزائه وسلوته ، وسروره ولذته ، الرافعة فوق معايبه ومعاجزه ، والمطهرة من مخابثه

---

(١) الذين يعتقدون أن إرادة الشر هو سبب هذا الوجود وهذا كفر صريح .

(٢) التقدير ثم تدفعه بواسطة العمل إلى .

(٣) بدل من العمل أى العمل الذى هو صديق الإنسان .

ومقاذره ، المشرفة بالكمالات والفضائل ، المنجية من حبائل الشهوة ومصايد الهوى ، المعينة على حمل العبء فى ظلمة الأسى ووحشة الكمد ، المنسية أبرح أحزانه ، وأقرح أشجانه ، وأقدح مواجعه ، وأفدح مفاجعه .

والعمل فى حد ذاته بغض النظر عن نتائجه هو لذة من أكبر ملاذ العالم ، ومن رأى فيه رأى الشرّيين فعده عدوا مبيناً ، كان المخطئ الضال قد عزب عنه الصواب وبانت منه الحقيقة . إذ أى لذة أعظم من أن يبصر العامل عمله لا يزال ينمو تحت كفه ويكبر حتى يكمل ، ويرى المفكر فكره لا يزال ينمو فى عقله وينضج حتى يدرك ، ثم يرى أنه غرس يديه أو ثمرة لبّه ، وأنه قطعة منه وشعبة من روحه . سواء فى ذلك الزارع وحديقته ، والمهندس وبنيّته ، والنقاش وصورته ، والنحات ودميته : والشاعر وقصيدته ، والكاتب ورسالته .

قال أحد الكتاب : « لذة التكوين والخلق تفى بأضعاف آلام العمل . وكما أن الجهاد فى تذليل المصاعب هو أول ملاذ الحياة ، فكذلك إتمام العمل رأس الملاذ . إذ كان يطلع المرء على مبلغ قوته ، ويعرفه مقدار ماله من قدرة على القوى الطبيعية . هكذا يكون السعى الصحيح والعزم المؤكد » .

ليس للعبقرية[1] من منبع سوى ميدان العمل . وإنما يكون الرجل معجزة فى باب العبقرية من حيث كان أوّلا معجزة فى باب الكد والعمل . والعزم كما تعلمون مسيطر على الظروف والحوادث محكّم فيها . وهو أقوى من أن تصده حادثة أو تقاومه حالة . وكيف وهو الذى ما برح يزيل الموانع ويخلى السبيل ، ويسمو بربه فوق الجدود العواثر والحظوظ الأوافل — فوق السعد والنحس — فوق النعيم والشقوة — فوق الخير والشر . وما كانت المسارّ التى نصيبها فى العيش إلا مشجعات لنا على اقتحام عقبات العيش وتجرع غصصه وإنجاز عظائم أعماله . وخير عنوان العقل فى الإنسان عمله ، وقيمة المرء ما يحسنه ، فإنما المرء ابن عمله . وقد قال ريشتار : « للعمل الصالح دوىّ فى أنحاء السموات كدوىّ الرعد القاصف » .

حسن معاملتك الناس فى شئون الحياة اليومية ، وجميل التعاون فى أداء أعمال الدنيا ، أقرب إلى الصلاح والتقوى من اعتزال الخلق وقضاء الوقت بالتفكير والخلوة . قال سويدنبرج : « ليست العزلة سبيل الجنة ، إنما سبيل الجنة العمل . وليس الصعب على الإنسان أن

(١) كل صفة من صفات النفس تعظم فيدرك بها صاحبها من جلائل الأعمال ومراتب الفضل والكمال ما ليس تيسر لمعظم الناس . وتكون العبقرية فى الشعر وفى الحرب وفى السياسة والصناعة والتجارة ، وقد تظهر فى المنكرات .

يحيى حياة بارّ كريم يحسن معاملة الناس ومعونتهم ، ويخفف عنهم العبء بمشاطرتهم البأساء والنعماء ، ومقاسمتهم السرّاء والضراء ، وإعانة نفسه وإياهم على السير نحو الكمال من الطريق الوحيد ، أعنى العمل . إنما الصعب والشاق أن يعيش المرء عيشة النسك والعبادة المحضة ، تلك التى يظن أنها تدنى من الجنة ، على حين أنها تقصى عن الجنة وتبعد » .

أرى الدين عند بعض الناس ألفاظاً تردد ، وحركات تكرر ، وأرى جماعة القوّالين قد فعلوا كل صالحة ، وأتوا كل مكرمة ، وبلغوا أسمى رتبة بالقول . وما أسهل القول لو أدّى نتيجة أو أفاد ثمرة ، ما أكثر التلاعب بالدين ، وما أضعف العزائم وما أخور الهمم ! ما أكثر ما يقرأ الناس من كتب الدين ، وما أقلّ ما يعون مما يقرأون . ما أملأ صحف الأسفار من معانى الدين ، وما أصفر صحف النفوس من تلك المعانى . والرجل الذى لا عزم عنده وليس له من الصريمة ما يمضيه فى سبيل الخير ، فلن يكون إلا أحد رجلين : متوقد[١] تهب به رياح الشهوة فى كل وجهة وتعسف به مطية الغىّ فى كل مجهل ، أو قعدد[٢] مكسال قد غلّ الخور عن العمل كفيه ،

---

(١) المتوقد هو المملوء نشاطا وجدّة فهو يتوقد بما فيه من الحركة توقد الشهاب. قال الشاعر :

متوقد الحركات تحسب أمره ... خفقان برق أو حفيف براق

(٢) القعدد المتقاعد الوانى .

وقيد العجز عن السعى قدميه .

إن من شر ما ابتلى به شبان إنكلترا اليوم القعود والكسل . وقلّما يفيد ما يسمونه « التربية والتعليم » مع وجود مثل هذه الآفة . فلقد طالما رأينا « التربية » مشفوعة بأرذل الأخلاق وأدنأ الطباع ، مقرونة بالذل والخنوع لذوى المناصب وبالجبروت والطغيان على الصغار الضعاف . وظلم الضعيف منتهى الخسة والسفال .

إن من أضعف الضعاف لدى الله قويا يستضعف الضعفاء .

فترى الشاب الذى ذلك شأنه لا يؤمن بشىء ، ولا يبجل شيئاً ولا يؤمل شيئاً . كلا ولا انتصار الحق فى خواتم الأمور على الباطل ، وانتهاء كل أمر إلى الخير المحض على كثرة ما يعرض من الشرور والبلايا . يقول الفتى الذى ذلك دينه وهذا شأنه : « كل المسائل سواء وليس شىء فى العالم يستحق العناية » . لبئسما تقول أيها المغرور وبئسما تصنع ! كلا فليست الأمور كلها كما تقول سواء ، ولم تك ولن تكون ما اختلف الليل والنهار ، وتنوعت فى أكمامها الثمار . تقول ليس شىء فى الكون يستحق العناية . باطلا قلت ، وإفكا زعمت . بل أصغر الأشياء وأضأل الأمور بأكبر العناية جدير وخليق ، وأنت بأن تستيقظ لأدنى الصغائر قمين وحقيق . وليست الحياة إلا حقوقاً وفرائض ، وإلا شرائع وقواعد . فأنت إن أضعت الحق وانتهكت الحرمة وتركت الفرض ، فإلى نفسك وغيرك

أسأت ، وعلى نفسك وأمتك بل سائر الناس جنيت . والكفر والجحود ، والخور والقعود ، وسائر النقائص والرذائل . فاعملن عدوى شرها مستطير ، والقدوة تكون فى القبيح كما تكون فى الحسن ، ولعلها فى القبيح أسرى . وحياة الكسول فناء ، مثلما فناء المجتهد بقاء .

لقد فشا داء السخط بين الشبان وكثر منهم النعيق والنعيب . تراهم بدل التشمير للسعى والمضىّ فى العمل يسكنون للمنى ويطمئنون للأحلام ولا طائل تحتها ولا خير فيها . وقد أدرك هذا المرض الحكيم شاننج فقال : شد ما يؤسفنى أن أبصر الجمّ الغفير من شباننا ينشأون فى مدرسة اليأس . يقولون هل الحياة أهل لأن يعاش لها ؟ كلا معشر الشبان ، إذا كانت تضاع توانيا وتفنى تراخيا . وليس إقبال بعض هؤلاء على الكتب وإكبابهم على القراءة بناف عنهم تهمة الكسل ولكنه كسل مضاعف ، وما هو بخير ولكنه شرّ إذ كان يزيدهم كبرياء وسخطاً . ثم لا يشحذ أذهانهم ولا يرهف ألسنتهم ولا يفتح قرائحهم ، ولا يستغزر مادتهم إلا لكيما تستخدم فى السخر من الفئة العاملين ، والطعن على القوم المخلصين . وإنهم على ذلك عجزة قعدة لا يبدأون ولا يعيدون ، قد حرموا العقيدة وسلبوا اليقين . تنزل من قلوبهم أفكار المؤلفين الذين يقرأون كلامهم فى مثل التربة المجدبة والأرض العقيمة ، وينطبق عليهم قول القائل :

ما لى أرانى كأنى قد زرعت حصى
فى عام جدب وظهر الأرض صفوان[١]

نحن لا نشتكى قلة الذكاء بل قلة الإيمان ، ولا نؤتى من نقصان علم ولكن من نقصان عقل وحكمة . وليس العلم والعقل كما يحسب الناس متلازمين فكثيراً ما يفترقان . قال فينلون : « لخير لك أن تكون أنت نفسك كتابا حكيما حيّاً[٢] ، من أن تقرأ الكتب الحكيمة . وكثرة القراءة قد تمتع وتلذ ثم تقف عند هذا فلا تهذب نفساً ولا تقوّم خلقاً » . قال سانت انسليم : « إنه ليبلغ بأعمال الأميين ، الطالبين فى كل ما يصنعون وجه الله ، من غايات الخير والبر ما ليس يبلغ بحذق العلماء الذين لا يطلبون وجه الله ، وإنما أغراضهم ومآربهم » .

وإليك ما وصف به كاتب من كبار كتاب فرنسا خلق أهل عصره ، قال : « ماذا ترى حولك حيثما نظرت إلا قلة اكتراث لكل دين وعقيدة ومذهب ، وفرض وواجب ، مع شدة اكتراث للّذات والمال الذى قد أصبح وهو الخافض الرافع ، المعز المذل القادر على كل شىء . ليس من كائن فى الوجود

---

(١) الصفوان الصخر ، ويشبه به الشىء الذى لا ينتج ولا يثمر ولا يؤمل عنده خير . قال الشاعر :

مدحت ابن سلم والمديح مهزة   فكان كصفوان عليه تراب

(٢) أى أن تكون لامتلاء صدرك بالحكمة كأنك كتاب .

إلا ويشتريكه[1] المال . ألا تراه يشترى الذمة والضمير والشرف والدين ، والرأى والرتب والمناصب والجاه ، والسلطة والاحترام والإجلال — كواذب مفاخر ومموهات مساع ومكارم — إفك فى إفك وباطل فى باطل . ولقد كانت قبل ذلك آراء فلسفية ومذاهب كفرية ، فما زالت تقلّ وتضمحل حتى فنيت فى ذلك المذهب الأكبر — مذهب قلة الاكتراث الذى هو أجدر أن يسمّى قبر الذهن وضريح الفهم . يدفن فيه العقل عاريا سواء من الحق والباطل . لبئس القبر ذلك الأجوف الخلاء القواء[2] لا تجد فيه ولا العظام النخرة» .

هذه علة عقام وطامة كبرى ، ولكن الجيل الحاضر يزعمون — وباطلا يزعمون — أنه فيما يسمونه « التعليم العالى » منجاة لنا وشفاء ، هم يقدسون « التعليم لعالى » ويرونه دينهم لا دين غيره ، وماذا فيه إلا التشاؤم والتبرم والشك والإلحاد ، عليها جميعاً رونق خدّاع من الأدب ، وزخرف كاذب من القول . وترى أهله[3] قد شمخوا بأنوفهم كبرا وسموا بأبصارهم ترفعا ، فهم لا يقومون فى

---

(١) أى يشتريه لك . قال الله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أى كالوا لهم أو وزنوا لهم .

(٢) هو الخاوى الذى لا شىء فيه .

(٣) أهل « التعليم العالى » .

مستوى الناس بل فى سماء موهومة من كبريائهم . يسخرون من فضائل السلف ومكارمهم من جد واجتهاد وورع وعفة ، ودين وتقوى وزهد وقصد ، ووفاء وحفاظ وإيثار ، وحب ورحمة وحنان ، أما دينهم فدين لا يثبت شيئاً وينفى كل شىء ، لا يبعث على احترام ولا إعجاب ، ولا تكبير ولا توقير ، ولا تأميل ولا رجاء ، بل على الشك بكل شىء ، والقعود عن كل فضل ، والتعامى عن كل ثمرة وفائدة . فهم لا يؤمنون إلا بأنفسهم وهم آلهة أنفسهم[1] .

والذى أحدث ما يدعونه« التعليم العالى » وأبدعه هو الشاعر الألمانى (جيتا) . ولكن أشعار جيتا لا تنتج من جلائل الأعمال ما تنتجه أشعار زميله شيلار ، فأشعار جيتا لهذا السبب عقيمة عاقر ، وكان جيتا رجلا يتجر بقلوب النساء — أولئك اللائى فتنهن بنفثات سحره — وأريد بقولى يتجر بقلوب النساء إنه كان يأخذ موضوعات شعره مما كان يجرى بينه وبين أولئك النسوة من حوادث الحب ووقائع الهوى . قال كاتب ترجمته : « إذا خلا ذهنه[2] من امرأة كان مثله كالمشرّح الذى لا يملك جثة يشرحها . وقد كان

---

(١) آلهة مضاف وأنفسهم مضاف إليه . أى أن كل واحد منهم إله نفسه .

(٢) يريد ذهن جيتا .

يقول[١] عن بلزاك[٢] : ليخيل إلىّ أن أحسن رواياته إنما أخذها من أحشاء مرأة محزونة . وهى كلمة أحق أن يقولها جيتا عن نفسه . وقد قال جيتا مشيراً إلى ما كان يبديه أيام طفولته من دلائل الميل إلى العلوم الطبيعية : « مما أذكره من حوادث طفولتى أنى كنت أعمد إلى الزهرة فأقطعها لأعلم كيف بناؤها وتركيبها ، وإلى الحمامة فأنتف ريشها لأعلم كيف مركّبه[٣] فى جناحها » وقد قالت السيدة بيتينا للورد هوتون : إن جيتا يفعل بالنساء فعله بالزهرة والحمامة . وأنه لم يترك من معاشقه[٤] — السامية والمنحطة ، الطاهرة والدنسة ، الكريمة واللئيمة ، إلا ما أحدث فيه مثل هذا التحليل والتشريح . وكان إذا حملته دواعى الفن والصناعة على أن يعرف كيف يكون فرط لوعة الحب عند المرأة ليصورها فى بعض أشعاره ، لم يحجم عن أن يجرّب ذلك فى إحدى حبائبه . وكان ساحراً فتاناً يفعل بلب المرأة ما يشاء ، فيمزق قلب إحداهن طبا بذلك بصيراً جلداً على ما يصنع ، فظ الفؤاد قاسى الكبد . مثله فى ذلك مثل النقاش الذى كان يرسم المسيح مصلوباً ، فأراد أن يفظع

(١) يريد جيتا أيضاً .

(٢) أعظم كتاب القصص من أبناء فرنسا .

(٣) اسم مكان من ركّب ومعناه موضع تركيب الريش فى الجناح .

(٤) حوادث عشقه .

الصورة ليبدى بها أوضح هيئة الألم البدنى فأغمد فى حشا الصورة حربة . وإن قدرة الشاعر جيتا — أثناء تلك السورة الغرامية — على دقة الملاحظة وشدة التأمل ، حتى يكتشف ما أراد اكتشافه من خفايا الطباع وخبايا الأخلاق ليَدلّ على أوفر نصيب من الثبات والرزانة . وكأنى بجيتا قد أشبه بطل رواية « لوم بلازى » ، إذ وقف يجس النبض ليعلم متى يبلغ الهياج والانفعال الحد المطلوب فيقف عنده قبل التجاوز إلى درجة الحمّى . وقد أخبرنا جيتا أنه لم يدع حادثة غرامية تمر به ، إلا واستخرج منها حديثاً شائقاً وقصة ذات شأن . وإنه كان ينظر إلى وقائعه الغرامية لا من الوجهة الذاتية بل من الوجهة الصناعية . أى أنه لم يتقلب فى حوادث الحب ، ولم ينتقل بين أدواره وأطواره عبثاً أو من أجل متعة شخصية أو فائدة ذاتية ، بل ليعرف من أسرار النفس وفلسفة الأخلاق ما قد يعد اكتشافاً عظيما فى عالم العلوم . وليكتب قصة أو قصيدة ينظمها الكون فى سلك الطرائف لؤلؤة ساطعة ، وينصبها الدهر فى معرض النفائس ملحة رائعة . وكان يقول إذا جرّ عليك الغرام بليّة فكتابتك عنها أحسن العزاء » .

ما أشد غرور المغتر بعلمه وذكائه ! وأى فائدة فى هذين إذ هما لم يقرنا بالصلاح والتقى ! بل ما أحقرهما وما أخسّهما إذا قيسا بالبرّ والحنان والرحمة . وماذا الذكاء بلا شعور والذهن بلا إحساس ؟ إن

هو والله إلا هيكل ميت قد ركب من آراء جامدة وأفكار راكدة .. إن هو إلا عظام ضمّ بعضها إلى بعض ما لم يكن هناك روح تنفض على تلك العظام ندى وحياة ، وتعطيها حقيقة ومادة ، وتهبها نعمة وسروراً . وما من أحد ، إلا ويذكر مقالة نيوتون ـــ وعساه أعظم من دبّ ودرج ، وأكبر من مشى على قدم وساق ـــ صاحب فكرة الجاذبية ونظرية تحليل الضوء .. حيث يقول : « ما أراني أمام أسرار هذا الكون الهائل ، إلا كطفل أقام ساعة على ساحل الأقيانوس الأعظم يعبث بما بين يديه من الصدف والحصى ، وأمامه أسرار المحيط وخبايا البحر كلها مجهولة ! » أترى فلاسفة اليوم يقرّون إقراراً كهذا ؟

قال الكونت ده ميستر : « إن من الحقائق ما لا يدرك إلا بالشعور ولا يفهم إلا بالقلب ، فترى الرجل الصالح كثيراً ما يدهشه أن الأريب اللبيب لا يقبل من الدليل ما قد قبله هو ، ولا يقتنع بالحجة كما يقتنع بها هو . فعلة ذلك أن هذا اللبيب الأديب فى قلبه مرض . وإذا رأيت الفتى اللوذعى ليس للدين من نفسه نصيب فعسير عليك أن تفحمه ، بل عسير عليك أن تفهمه » . وقال السير هامفرى دافى : « كثيراً ما يكون التعقل عقبة فى طريق الفهم وآفة للنفس ، يفسد الشعور ويقيم فى موضع العقيدة واليقين البحث والحساب والاحتياط » .

وبعد فأوجب العلوم وألزم الآداب هو ما يستفاد من غير الكتب والأسفار — من المعاشرة والمعاملة . فإن الإنسان مخلوق اجتماعى قبل كل شيء ، فالاجتماعية[1] فيه أرجح من العقلية[2] والفلسفية . وماذا فى الكتب يعادل ما تفيده المخالطة والملابسة ، كفضائل الظرف والأدب والرقة والتودد والحفاوة ، والحلم والمصابرة والملاينة والمياسرة ، والبقيا والاحترام والتبجيل والإكرام والإجلال ، والعطف والبر والحنان والمرحمة ، والعفو والصفح والتجاوز والتغافل ، والسخاء والبذل والتصدق والمواساة ، والتعزية والتسلية وسائر العواطف النفسية والجواذب القلبية التى تلين قسوة الحياة وتدمث وعورتها ، وترطب جفافها وتبل يبسها . ولا قيمة للعيش بدونها ولا خير فى الحياة لولاها . ولا شك فى أن تجارب الرجال أبعد مدى وأوسع نطاقا من عالم الكتب . والحياة كتاب تشغل العمر قراءته ، ولكنه لا يفهم إلا بترجمان من الإيمان والحجى .

قالت اللادى فارنى : « يرى أهل هذا العصر أن الفضيلة

---

(١) أى الصفة الاجتماعية ، وكذلك المراد من اللفظتين الآخرين الصفة العقلية والصفة الفلسفية .

والقراءة صنوان لا يفترقان ، أى أنه لا سبيل لإدراك الفضائل إلا القراءة وأن الكتب منبع الكمالات ، وأراهم فى ذلك مخطئين . ولقد كانت القراءة منذ خمسين عاماً أمراً نادراً ، فلم يك ذلك بمانع ذوى الفطر السليمة أن يروا الآراء ويسنوا المذاهب لأنفسهم ، غير معتمدين فى ذلك إلا على سلائقهم ونحائزهم . قال رجل من ذوى البصائر : « كانت جدتى لا تكاد تقرأ سوى الإنجيل وكانت على ذلك أفضل بكثير من نساء هذا الزمان وأعقل » .

فى سالف الأزمان كان لا باعث للصبى على صالحات الأعمال إلا حب الواجب ، فكان الخزى والعار فى ترك الواجب والراحة والسرور فى أدائه . قال هيدج ملار : « أما تلك الأمنية التى تخيل إلى القوم أنه قد يتوصل بالتعليم لرفع بنى البشر إلى رتبة فى المكارم سامية ، فذلك هذيان هذا الجيل وجنون هذا العصر — وكيمياؤه الذى يحاول بها تحويل النحاس عسجدا بغير واسطة سوى الطلاء والصقل .

وبعد فخير معاهد التربية والتثقيف هو البيت ، والحياة البيتية هى كما تشاهد طريقة الله فى تربية الصغار ، والبيت إنما يكون حسبما تصيره المرأة فهو ثمرة من ثمارها إن تشأ كان حلواً طيباً أو مراً خبيثاً ، قال أسقف أورليان السالف : (بالأمهات نيطت آمال فرنسا) . وهى عين الحال فى إنكلترا ، ولكن وا أسفاه أصبح النساء اليوم قد

أجنّهن حب التقليد فثرن يطالبن بأمور يدّعين أنها من حقوقهن وهى منهن بريئة . لم تخلق لهن ولا لها خلقن . يطالبن بحق الانتخاب وبأن يشركن الرجال فى أعمالهم ، يكنّ أمثالهم حذوك النعل بالنعل ، ضلة ! ما هن والانتخاب ووظائف الرجال ! أليس فيما فرض الله عليهنّ من الأعمال ، وناط الناس بهن من الآمال منتدح عن كل ذلك ومنصرف . وماذا ينفسن على الرجال لا بارك الله فيهن ! أو ما يرين الرجال فى نصب وعناء ، ومجهدة وبلاء ، لا يكادون يحرزون مسكة الأنفس إلا بشق الأنفس . قد قلّت الأعمال وخابت الآمال ، وضاق النطاق وأزم الخناق وعضّ القيد والوثاق ، واتسعت الخروق وغصّت الحلوق ، وأصبح الناس من شدة التكالب على الرزق كأنهم فى مأزق[١] الوغى[٢] المتلاحم ، ومأقط الروع[٣] المتلاحك[٤] . فلتفئن إلى عقولكن عصبة النساء ، ولتعدلن عن هذه المشاكل والمشاغب إلى ما خصتكنّ به الطبيعة

---

(١) المأزق والمأقط بمعنى المضيق .

(٢) والوغى الحرب .

(٣) والروع كذلك الحرب .

(٤) والمتلاحك والمتلاحم بمعنى واحد . ومعناه المطبق المنضم ليس فيه فرجة . يقال تلاحك الباب إذا انضم مصراعاه .

العاقلة العاقلة من الشئون والمزايا ، فإنها جليلة جميلة ما لها سواكنّ ومالكن سواها ، أعنى حكومة البيت ونظام المنزل ، وذاك أسّ كل نظام وحكومة . أنتن تطلبن السلطة السياسية تحسبن أنه من شروط صلاح الدنيا أن تعطين أصواتكن كل خمس سنين مرّة . وغاب عنكن أن كل صلاح الدنيا رهين بعملكن فى بيوتكن ، فهو نهر منبعه فى قلوبكن ، وغرس أصله فى نفوسكن ، وسحاب ينشأ تحت سقوفكنّ . ولنعم صنيع الحوارىّ بولوس إلى من تخلف من النساء فى بيوتهن ، إذ بارك فيهن وأثنى عليهن فقال : « إنهن لباب البشر والسرّ والنقاية والصريح المهذب ، وإن الدار جنة المرء والنساء ملائكتها » .

قال أحد كتاب هذه العصور بعد ذكره ما يجب أن يكون للمرأة من الصفات : « إن من نظر إلى ما ابتلى به نساء اليوم من الطيش والخفة يتبعن كل غاو ، ويقفون كل مضلل كأنهن السفن التائهة يرمى بهن الموج كل وجهة ، وتقذف بهن الأعاصير كل ناحية ، أوجس خيفة أن يكون الشيطان قد حال بينهن وبين الجنة . وإنه قد فسدت قلوبهن وخلت من ذكر الله أفئدتهن ، وأصبح ما بينهن وبين الله موحشا قفراً » . ولعل القارئ يسره أن يعلم أن كاتب هذه الكلمات امرأة .

ولما سئل البارون ستوفيل قبل حرب السبعين[١] بمدة قصيرة أن يكتب تقريراً يقارن فيه بين الآراء والأخلاق بروسيا وبينها فى فرنسا ، جاء فى خلال تقريره بهذه الكلمة : « النظام فى الجيش نتيجة النظام فى المجتمع والنظام فى المنزل . وأرى الشبان فى بروسيا قد شبوا على الطاعة واحترام السلطة وأداء الواجب . ولكن كيف يوجد هذا النظام فى الجيش الفرنسى إذا كان لا يوجد فى الأسرة الفرنسية ؟ ثم انظر — أصلحك الله — فى المدارس والكليات والجوامع وسائر المعاهد العلمية ، أتراهم يصنعون شيئا فى سبيل تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس بغرس آداب الاحترام والطاعة والرضوخ لسلطة الرءوس والشرائع والاعتقاد بالدين والإيمان بالله ؟ كلا ! نتيجة ذلك أنا لا نزال ندرج فى سلك الجندية كل عام طائفة لا تعرف الله ولا الدين ولا الواجب قد نشأت على الكفر والعصيان ، لا تطيع إنسانا ولا تدع بابا من العلم ولا مسألة من الدين إلا خاضت فى هذه وذاك عمياء البصيرة جدّ جاهلة بما تتكلم عنه ، وهى لفرط الغرور والقحة تخالها حق العليمة العارفة . وبعد كل ذلك يقوم نفر من الناس يزعمون أنا قادرون عقب إدخال هؤلاء

---

(١) كانت بين فرنسا وبروسيا فى ذلك العام .

الفجار فى الجيش أن نعلّمهم النظام ونعوّدهم الطاعة ، كأنهم لم يعلموا أن النظام فى الجيش ما هو إلا النظام فى المنزل والندىّ[1] ، أعنى أداء الفرض وطاعة الرئيس واحترام مبادئ السلطة والشرائع . فأما النظام المتكلف فقد يبقيه حكم الضرورة حينا ما ، حتى إذا رفعت الضرورة ذهب النظام أدراج الرياح » ألم يعلم القارئ أن البارون ستوفيل كان فى هذه المقالة رسولا نبياً ؟

أترى تلك أيضاً الحال فى بلادنا ؟ أترى الديموقراطية النامية المتزايدة تذهب بمحاسن الخصال ، ومكارم الخلال ؟ نحن أمة تيّاهة[2] نفخر بثروتنا وسلطاننا وكفاءتنا واقتدارنا ، وبحّارتنا وفرساننا وتجارتنا واستعمارنا . بيد أن جميع هذه قد تزول بعد حين فنصبح كهولاندا أمة مثرية ضعيفة ، فإنما الأمة برجالها . ولن تمتاز أمة بأخلاقها وحسبها ومجدها وتمسكها بعرى الحق والشرف والمروءة ، ما لم تتساو الأخلاق فى الأفراد وتتشاكل الصفات والشيم .

قال اللورد داربى فى إحدى خطبه الحديثة : « قال لى منذ أيام رجل من جلة الإنكليز : إنه ليخال إنكلترا ما برحت منذ يوم وترلو تضؤل فى تلك الصفات التى هى عماد عز الدولة وقوام سؤدد

---

(١) الندىّ هو النادى .

(٢) كثيرة التيه وهو العجب والزهو .

الأمة . ولم يصرح باليأس من الصلاح ، ولكنى آنست من رنة صوته وفهمت من عروض[١] حديثه أنه قد ملئ يأسا . والحق يقال إنه قد أرهق[٢] الشر ، ورنق[٣] النكر ، وأزفت الآزفة[٤] فطوبى لمن درج[٥] قبل نزول البلية ! » .

هذه كلمة محزنة وقول مبك . فهل حقاً أرهق الشر ، ورنق النكر ، وأزفت الآزفة ، كما حدث فى فرنسا منذ مائة عام ؟ لقد قال الدكتور نورمان ما كليود : إن ما قد أصاب البلاد منذ حرب ١٨١٥ وما لم يزل بها حتى الساعة من ذلك التخبط والاختلاط ، لحادث جلل لا يقل عن حادث الانقلاب الدينى : الريفور ماسيون

---

(١) يقال عرفت ذلك فى معراض حديثه وفى معاريض حديثه وعروض حديثه . وفحوى حديثه أى من غضون كلامه وأثنائها .

(٢) رهقه وأرهقه دنا منه . يقال رهقت الكلاب الصيد ، ورهقته الصلاة . ويقال قد أرهقكم الليل فأسرعوا .

(٣) يقال رنّق ولا تعجل أى توقف وانتظر ، ورنقت السفينة دارت فى مكان واحد لا تمضى ، ورنقت الراية ترفرفت فوق الرءوس ، ورنقت منه المنية دنا وقوعها . قال ذو الرمة :

ورنقت المنية فهى ظل على الأبطال دانية الجناح

(٤) أزف الرحيل دنا ، والآزفة القيامة . والمراد هنا المصيبة الجليلة أى فساد أمورهم .

(٥) مات .

خطارة ، فإنك ترى الآن انتشار الشك فى جميع الآراء والعقائد القديمة ، دينية وسياسية وعلمية وفلسفية واجتماعية . وإنه رغما من غرور تلك الفئة الضالة القائمة الآن بهدم تلك الآراء القديمة ، فإن هنالك أناسا ما برحوا فى جانب الحق والواجب .

أى شىء أحزن وأوجع من أن ترى الناس يقضون أعمارهم بالمباحثات والمجادلات فى تلك المسائل العظمى ، التى كان آباؤهم بها مؤمنين إيمانا ضمن لهم فضائل اليقين والبر والصلاح والتقوى ؟ وأرى هنالك عقيدتين ما رسختا فى فؤاد إلا بدلتا نهج الحياة — عقيدة أن هذه الدنيا إنما هى مجاز إلى غيرها ومعبر . وعقيدة أن كل ما أظلت السماء وأقلت(١) الغبراء(٢) ، شاهد بوجود الله . وأنا من عمل الخير واقتراف الشر — من سبيل الله وسبيل الشيطان بالخيار . وإنما العدول عن أحدهما إلى الآخر أمر يترتب على الضمير والعقل والإرادة . والهموم والأكدار قد تعرض فى طريق الواجب ، فالصبر والجلد والشكر لله ، والرضا بما قسم لأنه قضاء الله وما قضى إلا الخير وإن قصرت مدارك وضلت عقول . والعمل الطيب قوة لصاحبه وقدوة للغير . وهو كنز وحصن وسبب إلى الله وسلم إلى الجنة . والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا .

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد   ذخرا يكون كصالح الأعمال

---

(١) أقلت أى حملت .   (٢) هى الأرض .

(الفصل الثالث)

الصدق والأمانة صنوان مؤتلفان . ورفيقان متفقان . بل لا جرم إن قلنا إن الأمانة هى الصدق والصدق الأمانة ، والصدق وحده لا يجعل المرء عظيماً ولكنه أسّ العظمة . يعطى الأمان لمن يستخدمون المرء ، والثقة لمن يستخدمهم هو . والصدق روح المبدأ وجوهر الشرف وعنصر الاستقلال . وهو أول شرائط الرجل . ونحن فى هذا العصر أحوج إلى الصدق منا إلى غيره .

والكذب على كثرة انتشاره مذموم حتى من الكاذب ، فتراه يحلف لك أنه لا يقول إلا الحق لعلمه أن الحق محمود أينما كان ، والباطل مستنكر فى كل مكان . والكذب مع منافاته الأمانة يدل كذلك على الجبن ، فإنه لا شجاع كذاب . قال جورج هربرت : « اجرأ على الصدق فإنه لا شيء قط يستوجب الكذب » وأخبث الكذابين من حاموا حول الحقيقة فكلامهم كالحق وليس به . وذاك أحرى أن يخدع وأملأ أن يغرى وأبعد من أن يفطن له فيعرف .

والكذب يكون فى العمل كما يكون فى القول ، وإن للعمل لصوتاً كصوت الكلام . والرجل الدنىء يكون كاذبا فى صناعته يروغ من

الصدق الذى يدعيه ، ويستعمل الرياء والنفاق لأنه يعوزه الإخلاص والصدق . أما الرجل المخلص فإنه يقول كما يرى ويعتقد بما يريك أنه يعتقد ، ويعمل كما يريك أنه يعمل ويفى بما يعد .

الكذب من أشيع الرذائل وأسهلها على الناس ، وهو بعض اصطلاحات القوم ومألوفات الجماعة . فمن العادات الجارية قولهم للزائر السائل عن رب الدار : « ليس هنا » والناس يحسبون الكذب جد لازم(١) لتسهيل الأمور وإنجاز الأعمال فهم يجيزونه ويحللونه . يرون بعضه صالحاً وبعضه تافها وبعضه عفواً غير مقصود . وليس شيء أذيع من صغار الأكاذيب . والكذب مهما تُغوضِىَ عنه وتسومح فيه ، فإنه كريه لدى كل طاهر نقى ، صالح تقى . قال راسكين : « إنما الأكاذيب وإن ضؤلت وصمات تدنس القلب وتلوث الضمير ، ولخير للقلوب أن تطهر من جميع الأكاذيب بدون نظر إلى أيها أسود وأيها أكبر » .

والكذب خارج الأوطان من أجل مصلحة الأوطان مما يسيغه أهل السياسة ويحمدونه . ولكنى أراه رأيا جائراً ، وأرى المرء خليقاً أن يكون باللفظة تخرج من فيه أشد عناية منه بروحه التى بين جنبيه . فإنه لما أسر أهل قرطاجة ريجيليوس الرومانى ثم أرادوا أن يرسلوه فى نفر منهم إلى روما للمفاوضة فى أمر الصلح ، كان ذلك على شرط أن يعود من تلقاء نفسه إلى الأسر إن لم يتم أمر الصلح . فأقسم لهم

---

(١) جد لازم بمعنى لازم جداً ، وهو من الأساليب العربية .

ليرجعن إلى الأسر إن لم يتفق على الصلح .

ولما جاء روما قام فى مجلس الشيوخ فانبرى يحثهم على إدامة الحرب وعلى عدم الرضا بتبادل الأسرى . فكان فى عمله هذا ما استوجب رجوعه إلى الأسر . فأفتاه مجلس الشيوخ وفيهم رئيس القساوسة بأن اليمين ساقطة عنه مذ كانت اضطرارية . فقال ريجيليوس : « أوَ قد اجتمعتم على فضيحتى ؟ أنا لا أجهل أن العذاب والقتل فى عودتى . ولكن ما هذان فى جانب مخزاة الفعلة الخسيسة وجرح الضمير والنفس . وإنى كنت الأسير فى جماعة الأعداء ، لأحمل بين جنبىّ نفس رومانى . ولقد حلفت أن أعود فقد وجبت على العودة وأصبحت فرضاً حتماً . فلأرجعن ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء » ثم عاد فتولوه بالعذاب حتى قضى . فهكذا تكون سيرة الأبطال ، وكذلك تكون أنفة الرجال .

قال أفلاطون : « قل لمن يطلب الخير والسعادة أن يسمو إلى مرتبة الصدق ، فهنالك — وليس دون هنالك — الفوز والخير والسعادة » . ولنسرد الآن فصلا من كلام الإمبراطور ماركاس أوريلياس : « من ظلم فقد كفر . لأنه بما أن العناية الإلـٰهية إنما خلقت الناس ليكون بعضهم لبعض عونا ، لا أذى وضرراً ! فكل من خالف هذه الشريعة فهو فاجر كافر . وهذه العناية الإلـٰهية تسمى الحق وهى أصل كل حق . فمن كذب فقد جاء بما هو مناف

لِكُنْهِ الإلـٰه وحسبك بذلك كفراً . وكذلك الخدّاع والمنافق . وكذلك من يأتى الإفك(١) عفواً غير عامد إذ كان عمله هذا مناقضة للعناية الإلـٰهية ، وإخلال لنظام العالم لأنه حرب له وآفة . فإن قيل إنه يأتى الكذب غير عامد ، قلنا إنه ما فقد التميز بين الحق والباطل إلا بعد أن أفسد طبعه بإهمال ما قد وهبه الله من صفات الخير . وكذلك لا يسلم من الكفر من رأى كل لذة خيراً ، وكل كريهة شراً ، فاتبع كل لذة واجتنب كل مكروه ، وفى ذلك من الجور ما فيه » .

والصدق والأمانة مظاهر مختلفة ، وهما مما امتاز به ذوو العدل والإخلاص فى المعاملات والتجارات . من يربأون بنفوسهم عن خديعتك ابتغاء عرض زائل من مال أو رتبة . والأمانة أقرب وأوضح مظاهر الصدق . فإيفاء الكيل ، والوزن بالقسطاس ، والصدق فى النماذج ، والإخلاص فى الخدمة ، وسائر ما يلى الإنسان من العمل ، كل ذلك من شرائط أولى الفضل والاستقامة .

خذ مثلا على ذلك « ساء زيداً وكان قد ذهب إلى حانوت خمار نقصان الكيل ، فاستحضر الخمّار وقال له : قل لى يارعاك الله كم خابية من الخمر تبيع كل يوم ؟ قال : عشر . قال الشارب : أتحب

(١) هو الكذب .

أن تبيع إحدى عشرة ؟ قال : نعم . قال : فأوف الكيل إذا كلت » .

ويا ليت الغش كان عند هذا الحد ينتهى ، فإنا لا نزال نشتكى نقص الوزن وغش الأمتعة ، نشترى الشىء فنعطى خلافه . ولقد كان الأمر منذ أعوام غير ذلك ، وما أرانا ناسين كلمة المسيو له بلاى لدن زارَ إنكلترا فمدح أمانة الإنكليز فى مصنوعاتهم ، فقال : لم أر كالإنكليز بعداً من الغش وعزوفاً عن الغبن ، وحبّا فى الإتقان والإجادة وقنعانا[1] باليسير من الربح .

أرأيت لو عاد هذا السيد اليوم إلى ديارنا ، أكان يقول مثل هذا القول ؟ ألم يقرع آذاننا فى دور القضاء إعلان النكير على منسوجاتنا ومصنوعاتنا : من قطن قد خلط بتراب الصين ، وبالنشا والمنجنيز والزنك ؟ ولقد رأينا هذا الخبث بأعيننا فزال الشك باليقين . ثم نتيجة ذلك التدليس أن القطن يفسد فيكسد . ولقد كانت الصين إحدى أسواق الأقطان الإنكليزية ، فلما ظهر الفساد فى هذه الأقطان بارت سوقها وذهبت من تلك البلاد . ولقد جاء فى أمثال الصين : إن المشعوذ لا يخدع صبيه . والصينى نفسه من أخدع الناس يدسّ قراضة الحديد فى الشاى والماء فى الحرير . فلا بدع إذن أن يكون أفطن الناس إلى خديعة غيره . قال القنصل الإنكليزى فى

---

(١) مصدر من قنع يقنع وهو بمعنى القناعة .

أرض الصين : « نتيجة ذلك أنه قد اطلع هنا على عيب السلع الإنكليزية فاستبدل بها أمثالها من البضائع الأمريكية ، على رخص الأولى وغلاء الثانية . حسبنا الله لقد قلت الثقة بنا وضاع الأمل فينا . وكنا وليس إلا راغب إلينا فقد بتنا وليس إلا زاهدا فينا » .

ومثل هذا — حذوك النعل بالنعل — حالنا فى الهند . يشترون ثياب القطن فما هو إلا أن يغسلوها حتى تعود أسمالا وأطماراً . بيد أن الهنود يزرعون القطن فى بلادهم ولهم فوق ذلك أيد سراع خفاف طبنة(١) بالغزل ، لبقة(٢) بالنسج ، ليس يفضلهم فى ذلك أبرع الحذّاق من عمّال مانشستر . ثم عندهم المال وقد شادوا المصانع وطفقوا ينسجون لأنفسهم ، أغنياء بالجيّد من صنع أيديهم عن الرديء من مصنوعات غيرهم .

هذه كلها أمور قد ذاعت فى جميع المراكز الصناعية ، وأصبحت حديث القوم فى الأندية والمحافل . فيا للعجب لأرباب الصناعة ، أيحسبون أهل الأرض بلهاء أغبياء ، وأنهم هم الفهماء الأذكياء ؟ ولقد كان أحد أعيان الهنود يلف عمامته — فسأله سائل من الإنكليز : « إنكليزى هذا النسيج ؟ » فأجابه « بل سويسرى . قبح الله الإنكليزى ، إنه لزج يترك الأصابع لزجة » . أترى كيف

---

(١) و (٢) يقال فلان طبن بكذا ولبق بكذا أى حاذق به .

تبور بضاعتنا ، وتضيع تجارتنا ؟ أترى من أين جاء الوبال ، ولأى شيء ساءت الحال ؟

نحن الآن نرى الأقطان الأمريكية تباع بربح مرضّى فى لندن ومانشستر وغيرهما ، ونرى الأقطان الهندية تباع فى الصين وأستراليا على أنها أغلى من الإنكليزية . وإن الهند لتنسج الآن من الأقطان بمقدار ما تنسجه مانشستر ، أليس ذلك العجب العجاب ؟ وترانا بعد كل ذلك نفخر بصنّاعنا ونزعم أنا نعطيهم من العلم بأسرار الصناعة ما لا يوفق إليه غيرهم ، فأى فائدة فى العلم وأسرار الصناعة مع التدليس والغش ؟ واخطباه ! تشترى الفتاة الإنكليزية لفافة الخيط من التاجر على زعم أن فيها ٢٥٠ ياردة ، ثم لا تجد فيها إلا ١٧٥ ياردة . وافضيحتاه ! ماذا يكون بعد ذلك رأيها فى ذمة أبناء بلادها ؟

ولعل حجة الصناع فى ذلك هو شدة المساجلة ، وما تقيمه الحكومة فى سبيل حرية الصناعة من الموانع . إذ يبرح الصانع من قوانينها التقييدية فى سلاسل وأغلال . ونحن لا ننكر أن بعض هذه القوانين صالح ، كذلك الذى أطلق النساء والأطفال من الشغل فى مناجم الفحم ، وذاك الذى قلل ساعات العمل . ولكن يظهر أن قوانين المصانع قد جاوزت الحد . ولقد قال المستر كتسون فى مدينة ليدز : إن قوانين المصانع قد أوشكت أن تودى بكثير من

الصناعات ، فإن بلاد البلجيكا أخذت ترسل إلى إنكلترا صغار القضبان الحديدية ، لأنه يمكنها أن تستخدم الأطفال فى صناعتها . ثم جميع آلات البخار الصغيرة تلك التى كانت فى حين ما من أهم مصنوعات هذه البلاد ، قد أصبحت اليوم تصنع فى فرنسا والبلجيكا .

وليس مصاب أرباب المصانع قاصراً على ظلم القانون ، بل يبلون فوق ذلك بإضراب العمّال كلما آنسوا تحسيناً فى الحالة ، حسدوا أرباب العمل وتمردوا عليهم فأضربوا عن الشغل حتى ترى المصانع قد أغلقت ، والمسابك قد أطفئت ، والمبانى قد أهملت ، وكل حركة قد سكنت . وكذلك نضيع الوسائل والفرص ونجعل للأجنبى من تفريطنا سبيلا للفلاح ، ومن تقصيرنا سلّما للنجاح ، فيالله إنها لبلية أن يحسب العامل رئيسه عدوه الألدّ !

ولكن ماذا أقول فى قلة إتقان العمل ؟ لقد كان زمن كنت ترى العامل فيه ينكب على عمله فيفرغ فيه روحه وقلبه ، شغفاً بالعمل نفسه وولوعا بالصناعة ، كأنه يعكف منها على حبيب معشوق ، وأليف مرموق . بل على دمية نصبوها بجانب المحراب . مثل هذا العمل هو الخليق أن يسمى عبادة ، وكذلك ينبغى أن يكون العمل . فإنك إن تسل أى أصناف العبادة أشرف ، وأى أساليب النسك أسنى وأمجد ، قلت لك : العمل المتقن المصدوق . يقول سقراط : ما

أحسن العمل وأنفعه إذا أراد به الإنسان لنفسه الكمال فيما يحترفه ، فإن يكن نجاراً واعتاد ذلك كان أعظم من يتقن النجارة أو كان سياسياً عرف كيف يجيد السياسة فإن النجاح الصحيح لا يكون إلا بهذه الوسائل وتمثل خلة بلوغ الكمال . كان (فود جوود) صادق العمل لا يرتاح إلا إذا أتقنه ناظراً إلى جودة ما يصنع والغرض الذى يعده له وإلى أن يعجب به الغير وإن وقع له أى شك فى صنعه دمره تدميراً وأعاد الكرة فى غيره وهكذا بلغ الكمال من تكرير صناعة ما لم يجز لديه .

يوجد من الصناع من يموهون فينخدع ببضاعتهم من يراها حتى إذا اقتناها اكتشفت له عوراتها بعد ما يكون قد وقع فيما مكروا وسبق السيف العزل فما أحسن الأمانة وأجمل الاستقامة .

***

هذا ما عربه الكاتب العبقرى الأستاذ السباعى ثم انقطع عن التعريب نظراً لمشاغله الجمة فطلبنا إلى الكاتب الأديب أحمد افندى عطية تكملة البقية .

(الفصل الرابع)

الجنـــدى

حياة الجندى حياة عمل ومشقة فهمه فى القيام بواجبه وفى أن يكون طيعاً منظماً متأهباً دائم التحفز،فإذا نفخ فى البوق هرع ملبيا هاطعاً،وإذا أمر بالإقدام على المخاطر أقدم غير هياب ولا وجل ممتثلاً للأمر لا يسائل فيه أو يناقشه، حثيثاًفى السيرمبادراً للهجوم ولو بين براثن الأسد وإلى فوهة المدفع المصوب القاصف .

إن الطاعة والنظام والشجاعة والامتثال من سجايا الرجال ، ومما يجب أن يتحلى به الجندى الباسل الذى يضع ثقته فيمن هم أعلى منه مرتبة وشأناً ، فلا يتزعزع عن مركزه إلا بأمرهم فى حالى انكسار جيشه وانتصاره.ثم يكون دائم اليقظة متنبهاً ينفى عن جفنه الكرى إذا أقيم حارساً بالليل،فرب غفلة لحظة تجرّ دمار جيش بأسره فما الجندى إلا فداء الوطن مبذول الحياة فى هذا السبيل .

كانت شجاعة « هنرى الرابع » ونشاطه وخفة حركاته سبب إحرازه النصر فى ميادين الوغى وحومة القتال ، حتى فاز على عدوه « مايان » الذى قيل عنه إنه كان يصرف من الوقت على مائدة الطعام

أكثر مما يصرفه « هنرى » فى فراشه حيث يستيقظ الساعة الرابعة صباحاً . أما « مايان » فلا يترك الفراش إلا لدى العاشرة ، وما بين هذين القائدين ثمة فرق غير هذا وغير أن « هنرى » كان يبقى طول يومه مرتدياً بملابس القتال.على أن « مايان » كان شجاعاً مقداماً لم ينقصه إلا ما امتاز به ذاك ، فكان عليه الخسار ولخصمه الغلبة والانتصار .

تزكية النفس هى الخلة التى يتجمل بها الجنود البواسل.ونضرب لذلك مثلا ما حدث عام ١٧٦٠ حين أرسل « لويس الخامس عشر » جيشاً من ٢٥٠٠٠ جندى تحت قيادة المركيز « كاسترى » للاستيلاء على « ريتنبرج » من مدن ألمانيا . فتحصن هذا الجيش فى معقل عند « يستركمب » ، ثم صدر الأمر للشاب « داساس » الضابط بأن يستكشف مواقع العدو ، فصار ينسل منفرداً حتى توغل فى غابة هناك ، وإذا بجنود الأعداء قد ساورته بغته وأسنة حرابهم تخز صدره والظبى مشهورة على رأسه . وقد دنا أحدهم منه يهمس فى أذنه قائلاً : إنك لو أحدثت أخفت صوت لتحتم عليك الموت الزؤام العاجل . فأدرك الضابط الشاب فى الحال حرج مركز جيشه وما يتهدده من المخاطر بمباغتة الأعداء . فنظر إلى آسريه شذراً بازدراء وصاح بأعلى صوته صيحة الأسد يقول : إليك يا « أوفارينى » فها هم الأعداء هنا ، وما كاد يتم صيحته حتى

وخذت الأسنة قلبه وانغمدت الرماح فى حشاه وسالت نفسه الشريفة على شفار السيوف ، ولكنه مات بعد تنجيته جيشه الذى هب لدى صيحته ودحر الأعداء فارتدوا خاسرين .

ويقال إن الفنون والآداب ترتقى فى الأمة زمان الحروب ، فنرى « سقراط » فى أمة اليونان « وأشبلوس » « وصوفكليس » « وإكسبنافون » جميعاً حاربوا لمجد أوطانهم فى جملة معارك متحمسين ينتابون طلائع الجيوش ، حتى ادخروا المجد والشهرة فى النزال ، وبنوا شرف أوطانهم على الأسل ، ثم بلغوا شأواً بعيداً بنبرات الأقلام . وهكذا كانت الحال فى روما أيام عظمتها . فكان « قيصر » عظيماً فى قتاله عظيماً فى أدبه . فإن أشرع الرماح أسقطت الولائد وشاب الولدان . وإن صرت براعته أطربت النفوس وأحيت الوجدان ثم كان الشاعر « هوراس » جندياً يقود فرقته تحت إمرة بروتس . ومن المدهش أن كثيراً من الشعراء والمؤلفين وأهل العلم كانوا جنوداً بواسل قاتلوا فى البر والبحر دفاعاً عن بلادهم وعن غيرها .

ربما كان السبب فيما ينزّل على هؤلاء من الأدب ، أنهم كانوا جنوداً تتحتم عليهم الطاعة والانتظام فى المعيشة والامتثال لما يؤمرون به ، فإن هذه تؤثر على النفس فتنمو المدارك ويمتلك المرء قياد نفسه وإرادته . ومتى تم له ذلك بعثت فيه روح النبوغ ، وصادف العبقرية الضالة واستفادها .

كان الشاعر « دانت » الشهير بين صفوف الجند فى واقعة « كمبالدينو » فحارب بشجاعة فائقة فى مقدمة صفوف الفرسان ، ونفى إلى « فلورنسا » من جراء ذلك .

و « شوسار » و « جورج بوكنان » و « بنجونسن » كانوا من شعراء الجنود الإنكليز ، و « مورنوى » اشتهر بالعلم وذاع صيته وهو من الجنود الفرنسيين ، حيث درس علوم الرياضة وتفوق فيها حين كان قائداً لفرقة الفرسان .

وكان « نيبش » ضابطاً حين درس الكيمياء والتأثير الكيماوى للأضواء والأنوار ، ومن ذلك كان اختراع التصوير الشمسى .

والحروب فى كل زمان داعية الويل والثبور ، وأصل المنكرات والفظائع ، فكم خربت من ديار ودمرت من مدن وأقفرت من عمار وصيرت الآهل بلقعاً موحشاً ، وكم فزعت من نفوس مطمئنة وأرهفت من أرواح بريئة صعدت إلى خالقها تشكو إليه ظلم الإنسان .

وفى القرون الوسطى وضعت قواعد الفروسية وحصروها فى حدود وروابط ، لتخف ويلات الحروب ، فإذا رشحوا غلاماً لرتبة فارس أنشأوه على الطاعة والامتثال والتأدب ، ثم دربوه على ركوب الخيل وامتلاك أعنتها ، وعلى المصادمة والقتال والشجاعة وشدة المراس ، مع تعويده على أن يكون رقيق الحواشى فى معاشرة

النساء ، حلو الحديث طيب العشرة لذيذ الفكاهة خفيف الحركات . فإذا بلغ مبلغ الرجال أدخلوه زمرة الأبطال بعد إجراء مراسم دينية ، بأن يصوم أياماً معدودات ويقضى ليلة فى المعبد يحرس سلاحه من حسام ولأمة ورمح ومغفر ، فتكبر نفس البطل وتترفع عن الدنايا والفحشاء .

وكان البطل الشهير « بَيَّار » ، مثال الشجاعة والنبل ، نذكره مثلاً للبطولة .

ولد هذا الفارس عام ١٤٧٦ بمنزل آل « بيار » فى مقاطعة « دوفينى » من أعمال فرنسا . ودخل الجندية وتدرب فيها ليكون بطلاً مغواراً ، ثم دخل فى خدمة الملك .

وما لنا أن نسهب فى سرد تاريخه ، غير أننا نذكر أهم ما قام به فى إيطاليا وهو تحت إمرة « فرنسيس الأول » فقد حضر وقائع عديدة قاد فيها المهاجمين فى حصار « برسكيا » ، فكان يتسلق الجدران ويثب عليها كالرئبال أو كجلمود الصخر حطه السيل . وقد أصابت فخذه فى إحدى وثباته طعنة نجلاء ، وأخرى انكسر معها النصل بين عضلاته فوقع صريعاً وهو ينادى على رجاله بالهجوم ، قائلاً إنهم قد امتلكوا المدينة . وجعل يشجعهم على الزحف وهو يصيح إنه قضى عليه أن لا يدخل المدينة لأن جرحه بليغ قاتل .

فلما سمع « الدوق دى نيمور » بسقوط القلعة طار به الفرح ، ثم عاد فقعد به الحزن عندما علم بأن « بيار » جريح فى النزع . وهب هو ورجاله يطلب الثأر للبطل عديم النظير .

وعند سقوط مدينة « براكسيا » وفرار جنود البندقية منها ، جعل الفرنسيس ينهبون المدينة ، ثم بحثوا عن « بيار » وحملوه من بين الجرحى والموتى على خشب مسندة ، وأرقدوه فى أقرب دار هناك كان ربها أولى إلى الفرار تاركاً امرأته وابنتيه الجميلتين تتشعع نفوسهن خيفة ووجلا .

فاستقبلت ربة الدار « بيار » وكانت لم تزل فيه بقية رمق رغم آلام جراحه ، فطمأنها وأمر الجند ألا ينهبوا دارها وهو يعيضهم من ماله على ما فاتهم من الغنيمة .

ثم أنزلت ربة البيت « بيار » فى أنعم مكان لديها وركعت بجانب سريره مبتهلة إليه وهى تقول :

« أى مولاى البطل الشريف ، إنى أهبك منزلى بما فيه فهو حلال لك ، فأنت المتملك الرقاب بحق الانتصار وحد السيف . وكلنا لك عبدان خضع ، ولكن هب لبنتى ولى الحياة يجزك الله ثواباً جزيلا

فأجابها بيار بصوت خافت قائلا :

« فليفرخ روعك أيتها السيدة ويهدأ بالك ، فإنى أعدك ا لا يمسنك سوء أنت وبناتك ما دمت حيا ، كما أنى أعاهدك بأنى

سأكون خير صديق لكنَّ أوفى بالعهد ، وأحترمكن غاية الاحترام ، فأسعفيني وقاك الله بما تستطيعين لأنقه من جراحي .

فهرولت السيدة هي وبعض الجند تبحث عن طبيب حتى وجدته فأحضرته على عجل ، وفحص الجرح فألفاه على اتساعه وبعد غوره لا ينذر بشمة خطر ولا ويل ، فصار هذا الطبيب يعالجه هو وطبيب « الدوق دى نيمور » حتى تماثل « بيار » إلى الشفاء ، فسأل السيدة عن زوجها فأجابت والدمع ملء جفونها ، أنها لا تدرى أحى هو أم ميت قد طواه الردى ، وصار طعمة للبواشق ووحوش الفلا ، فإن كان حياً فما هو إلا رهين دير يندب ابنتيه وزوجته كما يندبنه .

فأوفد « بيار » أتباعه يبحثون عنه ، فلما وجدوه أمنوه ووعدوه خيراً فثبت من اضطراب وقر من جزع بعد أن علم بأن بيار البطل فى بيته .

فلما تماثل « بيّار » إلى الشفاء أزمع اللحاق بجيشه بعد يومين ، وبادر طبيبه يمطره من كرمه غيثاً ويفيض عليه مكافأة له وجزاء وفاقاً .

وقد جمعت ربة الدار وزوجها ٢٥٠٠ قطعة من الذهب ليقدماها إلى « بيار » فدية عنهما وعن ابنتيهما . فعندما دخلت به ربة الدار تقدمه إلى « بيار » فى صندوقة صغيرة ركعت أمامه

وأرادت الكلام ، فما قبل أن يصغى إلى حديثها إلا بعد أن تجلس وتأخذ مكانها الخليق بها . فأطاعته وقالت :

« ما أنس للأشياء ، لا أنس أنا وزوجى وبنتاى يوم احتمائنا بك وأنت فى منزلنا ، ساعة ما كان النهب والسلب يقضى على المدينة وأهليها . فما عشنا نعترف بأياديك ونمرح فى النعماء التى أسديتها إلينا ، وما حياتنا إلا بعض مكارمك جدت بها علينا . فنحن مدينون لك بها وبشرفنا وعرضنا الذى صنته ، فإن ترد فها نحن ومنزلنا وما فيه غنيمة لك تأخذنا سبايا الحرب ، وتأخذ أموالنا غنيمة لك بحق السيف . وإلا فإنى أضرع إليك أن تقبل هذه الهدية الصغيرة فدية عن أنفسنا ، وتذكاراً منا لآدابك الساميات وخلقك الجميل العظيم » .

فسألها عما فى الصندوق فقالت :

« ما هو إلا مبلغ ٢٥٠٠ ذهب ، فإن أردت زيادة زدنا ساعين جهدنا فى التحصيل » .

وما كان « بيار » من عبدة النضار الطامعين فيه فقال :

« مهلاً سيدتى ، فإن تهبينى أضعافه بألاف ، ما كان عندى هذا شيئاً مذكوراً ، فأين المال ولو كثر بجانب حنانك وعنايتك بى أنت وابنتيك » .

فخرت السيدة راكعة على قدميه والدمع ينحدر من مآقيها ،

تسأله أن يقبل هديتها فإنما رفضه جعلها أتعس امرأة فى الوجود . فأظهر لها الرغبة ما دامت تلحف فى الإلحاح وطلب إليها أن ترسل ابنتيها فيودعهما .

فلما أتيتا ركعتا لديه فأنهضهما وأكرم مثواهما ، فقالت الكبرى .

« ترى يا مولاى أن أمامك فتاتين كنت على حياتهما وشرف عرضهما نعم الحفيظ الأمين . فلك بطول العمر دعوات صالحات وابتهالات إلى الله أن يثيبك فى الدنيا ويتم نعمته عليك » .

فتأثر « بيار » حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وشكر لهما هذه العواطف والحنان والمواساة فى وحدته ، وقال :

« لو أن الجندى يحمل من الجواهر ما يصلح للتقدمة لكما ، لأهديتكما أنفس حلى . والآن قد أجبرتنى والدتكما على قبول هذا المال الذى تريانه ، فأنا أطلب إلى كل منكما قبول ألف ذهب تستعين به على مهرها . أما البقية وهى ٥٠٠ ذهب فهى هبة للأديرة الفقيرة التى سلبها الجند متاعها » .

ثم فارقهما بين دموع تزرف وألسنة تشكر ، وهكذا خلف أطيب ثناء وأجمل ذكرى .

وأراد البابا يوليوس أن يمنحه رتبة قائد بين جند الكنيسة ، فلم يشأ « بيار » قائلا :

« إنه لا يعرف إلا سيدا واحدا فى السماء وهو الله ، ومليكا واحداً فى الأرض وهو ملك فرنسا وأنه لن يطيع غيرهما » .

ثم لاقى « بيار » حتفه بين زعف حصينه وأسمر خطى فى « ريلك » القرية من « ميلانو » بعد أن أبلى بلاء حسنا . وذلك حين وضعه الأميرال « بونيفيه » فى موقف محفوف بالمخاطر ، فأصابه مقذوف من الحجر الصلد فدق صلبه وكسر فقراته وأضلاعه فسقط يقول :

« إليك نفسى يا ذا الجلال تغمدها برحمتك » .

وقد أراد أصحابه أن ينقلوه بعيداً عن المعركة وهو يحتضر ، فأبى أن يستدبر العدو فى آخر لحظة لأول مرة فى حياته . ثم نقلوه تحت شجرة هناك وكان لم تزل به بقية روح يصيح بها فى أتباعه قائلاً :

« اهجموا .. اهجموا .. ودعونى ووجهى نحو العدو ولا يأخذكم الحزن ، فإنما هذه مشيئة الله الذى أبقانى طويلاً وأفاض علىّ الجزيل من إحسانه ، فاتركونى الآن أيها الأصحاب وإلا لحقكم العدو واستأسركم فحل بى وأنا أجود بنفسى حزن لا تريدونه لى » ثم صعدت روحه إلى السماء .

ولما تقدم الإسبانيول إليه ليأسروه وجدوه جثة لا حراك بها ، فقال المركيز « بوسكار » :

« أرأيتم مثل هذا البطل المغوار ، لقد أصبح جثة هامدة . لوددت

ألف مرة أن استأسره حياً » ثم رفع قبعته وأمر بدفنه فى مشهد حافل يجلله الإكبار والإعظام .

وقيل إن الأميرال (بونيفيه) كان يحسده ، ولذلك وضعه فى أخطر المواقف . ولم يعرف فرنسيس الأول قيمة « بيار » إلا بعد مماته حيث قال : إن فرنسا قد فقدت به رجلا عظيما كان اسمه وحده يترك جيشها مهاباً مرعى الجانب ، ومثالا للشرف والشجاعة ، وهو بطل كان أليق به ثم أولى أن يقعد فى ذروة من المجد أعلى وأفخر مما اكتسب .

وعندما انكسر هذا الملك فى « بافيا » قال .. « لو كان البطل الضرب « بيار » على قيد الحياة بجانبى فى هذه المعركة السوء ، لعددته بمئة قائد من هؤلاء ، ولما خسرت كل هذا فطوبى له ثم طوبى .. يا ليته حياً أعتز به ويكثر عددى » .

كان « بيار » شجاعاً ينجد المفزوع ، وقاسياً فى حومة الوغى يقهر خصمه ، ولكنه كان أيضاً رقيق الشمائل ذا أنفة وقناعة لا يسيغ الغنيمة والسلب ، ويبذل عن كرم وإحسان ولا يفتخر بما عمل ولا يتحدث عن نفسه . وكان صادق المخبر والعمل ، طاهر الإسرار والإعلان ، يرحم الضعيف ويرق له . فقد قيل إنه أمهر أكثر من مائة فتاة من المعوزات ، وكان ملجأ للأرامل وأبناء السبيل ، يردف التعب ويخلع الثوب على العارى ويقضى دين

الغريم ، ويمقت التملك والنميمة ويحسن جزاء خادميه والأعوان .

نشأ « بيار » على هذه الخصال من نعومة أظفاره ولهجت بالثناء عليه الألسن ، فبمثله يجب أن يقتدى الجندى ويتصف بصفاته .

إن الحرب إذا كانت للدفاع عن الوطن كانت شريعة وإلا فهى الغدر والظلم إن كانت للإغارة والسلب والتحكم فى الرقاب يقيمها الطامعون تحت ستر الاستعمار ولنشر لواء المدنية ، وهذا لا يبرر إهراق الدماء زوراً وإزهاق الأرواح عنواً وكنوداً .

والوطنية الحقة لا تكون إلا مع ذوى الأفكار السامية والشعور الراق ، ومنشؤها حب الوطن حباً خالياً من الغرض والأهواء ، متمثلا « بيروس » فى واقعة « بانوكبرن » ، أو « هوفر » فى « انزبروك » وغيرهما ممن كانت أعمالهم مجيدة ومقاصدهم خالصة ظاهرة ، فإن مجرد التفكير فى الاقتداء بهم يصقل العقول . ويشحذ الأذهان ويجمل النفس .

والوطنية الصحيحة تجدها فى وجوه البر والإحسان وفى كل العواطف الرقيقة والوفاء ، وإنك لا تجدها فيمن همه الشهوات والأثرة وإشباع نزعات النفس واتباع نزغات الشيطان .

ليس المرء إلا عضواً من الأمة ، وفرداً بين الناس لا قيمة بسواهم . فإن لم يساعدهم ويشاركهم فى الخير والشر نبذوه وأصبح ممقوتاً مرذولاً .

كان حب الوطن وحسن القيادة والشرف من الخصال التى تجمل بها القائد الذائع الصيت واشنجتون وهو من أعظم رجال القرن الثامن عشر ، نبغ بين أهالى « دورهام » الذين هاجروا إلى « أمريكا » وأقاموا بمقاطعة « فرجينيا » حوالى عام ١٦٥٧ .

جعل هذا القائد يصعد مراتب العلى وثباً ، فحاز رتبة « ماجر » وعمره تسع عشرة سنة ، وما بلغ الثالثة والعشرين حتى صار « كولونيل » يقود الجنود التى حشدها الإنكليز فى « فرجينيا » لصد غارات الفرنسيس عن الولايات الغربية . فقاسى فى تلك الوقائع ما قاسى حتى تهذبت نفسه ، وحنكته التجربة .

وقد أتى من جلائل الأعمال فى تحرير بلاده ما خلد له الذكر . فإذا انتصر كانت لا تسكره خمرة الانتصار فيزهى ويختال ، وإذا انكسر كان لا تفل عزيمته فيتقهقر ويفرق .

وكذلك كان دوق « ويلنجتون » الذى كان لدى الإنكليز بمنزلة « بيار » لدى الفرنسيس شديد فى الحق سعيد بأداء الواجب ، طاهر الذمة عظيم الخطر ، مولع بحب الوطن وإيتاء ما يعلى كلمته ويرفع شأنه ، غير مبتغ من وراء ذلك غرضاً لنفسه من الألقاب والأوسمة ، ولا طامحاً للسيادة على الناس ، راضياً بما يصيبه فى الحياة من رغد وشظف ، قانعاً بأن يكون هادئ البال قرير الضمير فى القيام بواجبه ، فلا يصرف وقته عبثاً بلا جدوى ، يطيع مع الفضيلة

ويمتثل مع الشرف .

وتقلد قيادة فرقة بمقاطعة « سوسكس » إذ كان يسوس الجحافل ويعمل على أرض الهند الواسعة ، وذلك بما قضت الحكومة فلم يشك و لم يتأفف من حال تبدلت وشأن تسفل . فإن داعبه أصدقائه يسألونه عما يشعر مما أصابه من وضع مرتبته ونزول كلمته ، يبش لهم ويحمد ربه قائلا : إن مليكه أطعمه وأواه ، والطاعة له عنده واجب والشعور بعمل الواجب سعادة ونعيم . « فإن أعلانى أو أخفضنى أذعنت وله البقاء » .

وكانت هجمات «ولنجتون» عنيفة فى واقعة « أساى » ، يكر بالجواد على العدو حتى إذا قتل الجواد استبدله بغيره وهو هاجم . وفى « دورو » ساوره الفرسان الفرنسيون فاخترق صفوفهم شاهراً سيفه ، يفتح به طريقاً بينهم .

وأصابته فى واقعة « سلامنكا » رصاصة فى فخذه ، واخترق الرصاص قلنسوته وقال « نابييه » إنه كان بالقريب من « ولنجتون » ليلة سقوط « سلامنكا وقد اشتد وطيس الوغى وانهالت قذائف المدافع ، وأمطر الرصاص وابلا يزهق النفوس . فرآه « نابييه » ينظر إلى هذا النصر المبين ووجهه متهلل وعيونه براقة ، ولكنه كان مع ذلك لا يطيش به الفرح ، فإن أصدر أوامره أصدرها بسكون

وروية . وقال « نابييه » « إن فى صوت هذا القائد عذوبة لن أنساها » .

وكان دوق « ولنجتون » صبوراً على الشدائد ، جلداً ثابت الرأى ، وأول شيء دل على هذه الخلة فيه هو ما قاساه يوم أحاط به جيش « مسينا » عام ١٨١٠ فى « طور فيدامس » ، وقد تمرد عليه ضباطه وانسحبوا الواحد إثر الآخر قافلين إلى إنجلترا ، ولم يبق معه من القواد سوى القائد « كامبل » . واضطر إلى أن يقود الفرسان وطليعة الجيش وفرقتين أو ثلاثا أخرى بنفسه فى آن واحد .

وأوعزوا عليه الصحف والرأى العام ، وصارت الحكومة تنظر إليه بعين الريبة كيف جاز له أن يستكين وقد أحاط به العدو من كل صوب ، وطوقته جيوشه المحتشدة فما عبئ بذلك التذمر ولا أعاره شيئاً من همه ، وصبر على أحر من الجمر تاركاً الفرنسيس يتقدمون مغيرين على البلاد يعيثون فساداً فيما يمرون عليه من القرى ، وجعلوا يخففون كثيراً من ذخائرهم ليسهل السير . وما هى إلا ريثة حتى دنت الساعة ، وخرج الأسد من عرينه بعد الجلد الطويل زاحفاً على الأعداء حتى غشى جيش « مسينا » فى « فونتس دونورو » ، وحمل عليه حملة نكباء ، هدمت من قوى هذا الجيش ودكت من شوكته فكسره كسرة قاضية ، ودخل « ألميدا » وأخذ عنوة « كيودادر ودريجو » و « باداجوز » ودحر « مرموت » فى

« سلامنكا » . ثم تقدم إلى « مدريد » فظفر بها وليس معه سوى ضابط واحد من أركان حربه ، بينما كان أركان حرب الأسبان لا يقلون عن ثلاثة وأربعين ضابطاً .

كان الدوق يعفو إذا وقع أحد جنوده فى ذنب أو أتى بجريرة ، وكان يزن كل حال مقدارها . فمرة فر أحد أعوانه بمرتب الجنود ، وهو مغرى على ذلك من امرأة لعبت بلبه فارتكب هذا الجرم بعد أن كان مثال الأمانة وخفر الزمام . ولكن الدوق نظر إلى الأمر بالعدل ، ورأى أن أحسن عقاب لمثل هذا إنما هو العفو عنه ، فعفى ولم يجزه إلا بأن أقاله من الخدمة ، وكان الجدير بأن يسجن سجناً محدوداً . فتأثر الجندى أيما تأثر ، وأبى إلا أن يتطوع فى الحرب بعد أن كان فى سلك الجنود الرسميين فقبل منه ذلك . وكانت النتيجة أن أبلى الجندى فى النزال بلاء حسنا ، وأظهر من الشجاعة أضعافها .

وكان هذا الدوق بالغ الأدب ، لا يأمر شامخاً متعالياً ولكن راجياً متلطفاً ، ومثله لو أراد لتحكم وبغى . وكان حليما يكظم الغيظ ويوحى إلى أتباعه أن يسلكوا مسلكه قائلا : « إن الحنق وقارص الكلام بإرعاد وهجر لا يجدى نفعاً ، وإنما يؤلم النفوس وينفرها ويجرح العواطف ويثلمها » .

كان شفيقاً محباً لمرءوسيه يحنو عليهم حنان الأم على الولد ، وقد رأى « نابيبه » دموعه تنحدر مدراراً بعد ظفره « بياداجوزا » وذلك

حزناً منه على من فقد من رجاله ليلة سقوط هذه المدينة . وكانت ليلة هائلة قتل فيها ألفان من جنده البواسل .

وجعل طبيبه فى صباح ١٨ يونية يقرأ عليه تقريراً عن جرحى الحرب وقتلاه فى واقعة « واترلو » ، فكان يسمعه والدمع ينسكب من عينيه ويداه مشتبكتان تأثراً واضطراباً ، ثم كتب إلى أصدقائه يقول :

« إن الفوز والنصر والتشفى من العدو ليست بكافئة للتعزى على ما نجر من الخسائر ، فأنا حزين غاية الحزن على من مات شهيداً من أصدقائى القدماء الأوفياء ، وأتباعى الأحياء الذين كنت أسمعهم يئنون مثخنين بالجراح ، وأسمع حشرجة صدورهم وأرى أجسامهم تبلى وتلفظ نفوسهم » .

ومن مأثور كلماته :

« إن الانتصار فى الحروب يؤلم المنتصر ، بما يكون فى غضونها من فقدان الأبطال الأوفياء . ولا أعرف شيئاً آلم من ذلك إلا الانكسار » .

سقطت إمبراطورية فرنسا بعد انتصار « ولنجتون » على « نابليون » ، ولم يشأ قاهره أن يحكم عليه بالإعدام مع أن « بلوتشر » وكثيراً غيره أشار عليه بقتله . وكان يقول إن هناك طرقاً أخرى للتخلص من « نابليون » غير طريقة إعدامه .

كان « ولنجتون » يحتفظ بحياة ذلك الإمبراطور الكبير ، و « نابليون » الإمبراطور فى الوقت نفسه يعلن أن يمنح عشرة آلاف فرنك لمن يغتال حياة الدوق .

إن أساس عظمة ذلك الدوق إنما هو القيام بالواجب ، وأدائه بما يريح ضميره ويسعد نفسه .

وجعل القائد الروسى « إسكو بيلوف » يفاخر بانتصاره أمام « روز » ، وذلك حينما كان فى ساحة القتال عام ١٨٧٩ حيث الخراب والدمار والأشلاء ، فقال له « روز » : « رويدك بعض هذا الفخر ، ثم تمثل بقول الشاعر :

إن خير الفعال إرقاء دمع　　　لا فعال تفيض منها العيون

فأجابه القائد : « إنك لصادق فى قولك ، ولكنى جندى ومهنتى الحرب » .

(الفصل الخامس)

البطولة والحسنى

كانت الشجاعة والفضيلة فى الأزمان الغابرة كلمتين بمعنى واحد ، وكانت القدرة والقوة خير عون للمقاصد الشريفة . وكان الباسل الشجاع من يرفع شأن قومه ويبذل الجهد فى خدمتهم وتنجيتهم من المخاطر .

وللنفس نوع آخر من الشجاعة ، فى النزاهة وسلامة الضمير ، والعفة والتذكية ، والإقدام لنصرة الحق على الباطل بالرغم من معاناة مصاعب الدنيا ، وكذلك الثبات والهمة روح الفضيلة وعنوانها ، ويتكوّن من الجلد والحزم واحتمال المكاره جميعاً البطولة الحقة ، والبسالة الصادقة .

وليس المحل الأول والمقام الأسمى للبطولة فى ميادين القتال ومسارح الوغى . فإن طقطقة البنادق وإرعاد المدافع تحرض الرجال وتدفعهم وهم فى حومتها إلى الإقدام ، وتروضهم على الهجوم ، وهذا هو منبع جميع شرفهم ومبعث فخارهم . ونحن تجاه ذلك

لا نرى النساء أقل بطولة وأصغر شأناً ، فهن يحملن ويقاسين المخاض والولادة ، وهن ذوات خلال فى التجلد والصبر تعادل من غير نقص خلال الرجال ، وليس فى أقاصيص الحروب الدموية ما تتأثر له العواطف مثل قصة المرأة التى تزيت بزى الرجال ، لتتبع عاشقها إلى ساحة القتال وتقف إلى جانبه وهو صريع ، وتؤثر الموت على الحياة لا تفارق جثته الهامدة .

وكم من جنود فى الدنيا ما انفكوا يحاربون فى معارك الحياة ، جادين فى السعى للوصول إلى مبتغاهم فى الوجود من مكانة ومقام ، ثم لا يصلون . وكم من مرة تدفعهم الحاجة فيتهالكون ويتكالبون ثم يعودون خاسرين ، فلا يلبثون حتى يبرق لهم الأمل فيرجعوا الكرة مستبسلين ، وهكذا هم يولون الأدبار مرة يائسين ، ويرجعون أخرى للهجوم متحمسين . فجندى الإيمان لم يندفع على الإقدام بمثل العوامل التى يندفع بها جندى الحروب . فإن الحومة التى ينازل فيها المؤمن ليست ذات كر وفر وعراك ومبارزة ودخان ونيران ، ولكنها حومة التألم والمقاساة وتذكية النفس ، لا تتألق لعينيه فيها نجوم الأمان ، ولم تلمع له الخوذ أو ترفرف على رأسه الرايات والأعلام . وإن لاقى حتفه فى سبيل تأدية الواجب لا تدق له النواقيس ناعية ، ولا تحتشد له الجموع متوشحة بالسواد ، بل كل ما يحدث أن تسيل بعض الدموع على جدثه فى سكون وهدوء .

لم يخلق الرجل للشهرة والعظمة أو للنجاح ، وإنما خلق لغرض أسمى وأعظم مما تمنحه الدنيا فإن « جرمى تايلور » يقول : « منح الله الإنسان حياة قصيرة على الأرض ، ولكن على هذه الحياة القصيرة يتوقف الخلود . ولنذكر أن لنا أعداء كثيرين ندحرهم ، وشرورا نمنعها ، ومخاطر جسيمة نقتحمها ، ومصاعب نذللها ، وحاجيات عديدة نتطلبها .. وإن أمامنا خيرات جمة نفعلها » .

وتضحية النفس هى مفتاح الإيمان ، وما كان عظماء الرجال والنساء محبين لذاتهم التى وهبوها للغير ، على غير طمع فى شهرة ، ولا طموح إلى علاء ، معتقدين أن خير الجزاء لهم على فعالهم هو مجرد شعورهم بإنجاز الواجب . ولقد فاتوا و لم يسمع كلمة عن حسن صنيع هؤلاء العظماء ، الذين قاموا بخير الخدمات .

وما فى الوجود شىء لا ندركه مما لا ضرورة له ، وما فيه شىء لا نراه مما هو لاصق بحياتنا الملأى بالأوهام ، وما المصائب فى الغالب إلا لتبلو الإنسان . وقد قال الشاعر الألمانى الكبير : « من لن تسل دموعه ليأكل خبزه ، ومن لم يقض الليالى متألماً منتحباً فى فراشه، لا يعرف ما هى القدرة السماوية » .

وربما لم تنزل الشدائد إلا لتبلونا أينا أصبر على المقاساة . فإذا نحن تحملنا ساعة البلوى وثبتنا ، فإن الفكر يصفو والخاطر يهدأ . وهذا ما نشعر به دائماً ونقتنع إذا قمنا بالواجب خير قيام .

والفرص سانحة لفعل الخير لكل من يشاء ويعمل ، والروح الحادة تجد سبيلها إلى قلوب الغير ، والصبر على استطراد يتغلب على كل الأمور . وكم من نساء ورجال يتطوعون فى المخاطر لا بغية مديح الناس والثناء ،وينسون أنفسهم لمواساة الفقير لا طلباً للحمد والشكران . يواسون المريض ويتألمون لآلامه ، وتنتقل إليهم العدوى منه باذلين فى سبيل الواجب والرحمة ، وما لهم من جزاء سوى المحبة ، وما لأرواحهم المتلاشية فى الغير سوى التقديس .

وكان الطاعون فى السنين الخوالى وباءً فتاكاً ، يفر الناس من شره المتفاقم القاسى ، ويهرب البعض من البعض تاركين الموبوء فى الغالب يموت وحيداً كسيراً . فعز ذلك على كثير من نبلاء النساء والرجال فوقفوا حياتهم على إبادة الوباء .

فمن منذ ثلاثة قرون فشى الطاعون فى مدينة ميلانو ، وكان الكردينال شارلس بورومو فى ذاك الحين مقيماً فى أودى : فوطد العزم فى الحال على الذهاب إلى المكان الموبوء . ونصحه رجاله بالبقاء خيفة العدوى فأبى وقال : « إن الرجل المؤمن الذى وهب حياته لقومه ، لا يستطيع هجرهم إذا نزلت بهم المصائب والأوباء ، وإن الوقوف بين هؤلاء المصابين هو عمل سام . والواجب أن يأخذ الإنسان بأسمى عمل » . وذهب إلى ميلانو فلبث أربعة أشهر يغشى بنفسه منازل المرضى يعودهم ، ويزور المستشفيات ليخفف عنهم

الآلام ، ويراقب معالجتهم باذلا لهم الغذاء والدواء ، ويصلى عليهم ساعة الاحتضار . ولم يعد إلى بلده إلا بعد أن أبيد الوباء .

وللكردينال أياد فى غير ذلك ، حيث كان يشيد المدارس لتعليم أبناء الفقراء ، ويأويهم من التشرد والضلال ، ويرشدهم بما يلقيه عليهم ويلقنهم العلوم والنصائح . وقد أنفق كل ثروته فى بناء المدارس والجامعات ، وفى عمل الإحسان والرأفة بالمفلوكين . وكان الشقاء شائعاً فى تلك الأيام فسعى جهده ليقشعه بإصلاح حالة رجال الدين وتنظيم حياتهم وتعليمهم الوقار والاحتشام ، وتبديل فضائحهم التى ساروا عليها بما هو الحقيق بهم من السلوك الحسن والسجايا الطيبة . فاستاءوا منه وزعموا له نقائص فيما هو بالحق كمال وحسنى ، فقد عابوا عليه تعليم الفقراء فى الكنيسة الكبرى ، وقالوا إن مدرسة الأحد التى أنشأها بدعة خطرة . ثم حرضوا رجلاً ليغتاله وهو على المذبح ، ففى اللحظة التى كان ينشد فيها الكردينال « لا تسلم قلبك للهموم ولو كنت فى منزع » أطلق القاتل الكامن مسدسه على الكردينال فأصابته الرصاصة فى ظهره .

هل كان فى وسع أى امرئ أن يصدق أن النساء يتعهدن بتمريض الجنود وقت الحرب ؟

كان عهدنا بالممرضات أن يكنّ من فئة الخدم العادية ، حتى كان عهد مس « نيتنجيل » التى عنيت بالمرضى والجرحى ، وجعلت

لنفسها مكانا علياً فى التاريخ . وأدرك الناس من بعدها أن التمريض مهنة يجب تعلمها ، وتعوز الذكاء والوفاء والكفاءة ، وأنها كالإحسان والمودة والحب . وكانت مس نيتنجيل تقول : « يقولون ويكتبون منذ عشر سنين أن فى استطاعة كل امرأة أن تحسن التمريض فلا يباريها فيه أحد ، وأنا أعتقد غير ذلك فإن أسرار التمريض ما زالت مجهولة » .

اختصت مس نيتنجيل بمهنة التمريض ملبية داعى شعورها الحى وإخلاصها ، وطلباً لتأدية الواجب والإحساس به . وما كان أغناها عن هذه المهنة الشاقة ، وهى سيدة وافرة الثروة ناعمة الحياة فخمة الدار ، معزوزة الجانب بين ذويها ، كبيرة الحظوة لديهم ، خضراء العيش تحفها كل ملذات الدنيا وطيباتها التى تجعل الحياة غالية محبوبة ، فأنكرت كل هذه ونبذتها عائفة متعففة ، مؤثرة عليها مقاساة الأهوال والأسى بالتآسى والآلام للمتألمين ، والحزن على المحزونين . وكان لها حنين وولع بمواطنيها ، فكم علمت فى المدارس وزارت الفقراء وأطعمتهم ، وقامت بتمريضهم إذا مرضوا ، وكل ذلك خفية منزوية فى مكان قصى بمقاطعة هامشير . وكذلك الإنسان يستطيع فى رائعة النهار خفية ما يريده .

وكان فى استطاعتها أن تمرح كغيرها من الفتيات وتسعد بمسرات الدنيا ، ولكنها رغبت عن أن تنتهج منهجهن وسلكت وعر المسالك

متحملة المشاق والمصاعب ، فانصرفت إلى زيارة المستشفيات والسجون ومعاهد العلوم . بينما كان أترابها يقضين الأيام ممتعين منعمين فى سذرلاند أوسكوتلانده أو على شاطئ البحر ، كانت هى تشتغل فى مدرسة التمريض الألمانية وفى المستشفى الألمانى ، إلى أن تقدمت فى مهنة التمريض رويداً رويداً من البدء إلى النهاية ، ثم إلى تعلم غسل الثياب والمسح ، ثم بقيت بعد ذلك ثلاثة أشهر فى خدمة المرضى ليل نهار ، فازدادت تجربة ودراية على أعمال المستشفى .

وبعد أن عادت مس نيتنجيل من هذه المدرسة داومت على العمل بهذه المهنة ، فدبرت شئون مستشفى الحكومة الذى كان على وشك الخيبة ، وأحسنت القيام عليه معتنية بأمره جاحدة نفسها حباً فى وطنها ، لا تتنسم الهواء العليل الشافى منزوية فى هذا المستشفى بشارع ستريت ، واهبة النفيسين من عمر ومال لتمريض إخوانها المريضين ، فجعل المستشفى بفضلها يكسب شأناً وشهرة ، ويرتفع من الوهدة التى كان على شفاها . غير أن صحة مس نيتنجيل بدأت تنحط من الانحباس والركون بين الجدران ، فطلبت لترد قواها الفضاء والهواء فى هامشير ، وما لبثت حتى ضجت الديار بصرخة وفزع من قيامة الحرب ، وأصاخت لاستغاثة الجرحى وقد أمست الحاجة إلى الممرضات الأكفاء . فلبت شعورها الحى النبيل ، وذهبت تواً إلى مستشفى « بيرسبروس » حيث الأبدان تتلوى على

فراش الآلام بلا عناية ولا رعاية ، حتى وصلت إلى سكترى فى سفينة. فجازفت إذ ذلك بالحياة وركبت المراكب الخشنة وأنواع الخطر المدلهم ، غير مبالية ولا هائبة ، فإن البطل الشجاع من يستهين بالعظائم طلباً لتأدية الواجب .

تعهدت مس نيتنجيل فى تلك الحرب بكل ما دعاها إليه ضميرها ، وخاضت معمعة الوغى تضمد جراحات الجنود براً وبحراً ، وتضع للتمريض نظاماً كفيلاً بالشفاء والحياة ، وترأست معهد الاستشفاء على ما فى ذلك من العبء الثقيل والمسئولية العظمى .

كانت تخفف آلام الجرحى بالمواساة والتعزية ، فيبتهل الجنود إلى الله بالدعاء لها كلما رأوها . وتحنو على وسائدهم فى الليل تتسمع أنفاسهم وتقدر حالة صحتهم . ولم يكونوا يعرفون اسمها ، فإذا بدت لهم أو ذكروها دعوها باسم « ملكة النور » . وقد أكبر الجند تلك العذراء النقية وأخلصوا لها المحبة مع تجلة واحترام ، إلى أن أصبحت معبودة لهم فتحاشوا هجر اللفظ وخشنه ، خيفة أن يسوءها أى شىء منهم ، وكانوا يتحملون بحضرتها العمليات الجراحية المؤلمة لا يتململون ولا ينازعون إرضاء لها . وكانوا فى مرضهم يتبعون إرشاداتها مختارين ، وتسبغ عليهم من أياديها وإحسانها ما تأسرهم به أسر الحر للحر ، فتتولى عنهم مكاتبة ذوى

قرباهم وأصدقائهم النائين فى إنجلترا وأرلندا ، وتحتفظ لهم على نقودهم جاعلة لهذه المراسلات والتحف مساء يوم فى كل أسبوع . فما أعظم عرفانهم بجميلها وشكرهم صنيعها ، وما كان أعظم رحمتها وعنايتها بهم .

وهكذا توجد أنواع عدة من البطولة والحسنى لا يدركها الناس ولا تظهر جلية . إلا أنها عظيمة ذات أثر طائل ، ولربما وجدت بين الفقراء أكثر مما توجد بين الأغنياء ، فإن الفقراء والمساكين وأبناء السبيل يعرفون مصائب أنفسهم فيعطفون على نظائرهم . وقد قال سائل متسول : إن البنات المتسولات يحسن عليه بأكثر مما يحسن أى إنسان .

إن الفضيلة تبعث الاحترام والتجلة ولو بين فئة السائلين .

قد يظن البعض أن أمثال هذه البطولة وهم وخيال لا حقيقة له ، ولكنهم مخطئون . إذ أنها حقيقة لا ريب فيها ، وإليهم مثل أبعث للغرابة وأدعى للإكبار ، رجال ونساء يقفون حياتهم على إنقاذ السفن من البحر . وأقرب ما كان من ذلك ما جاء من نبأ الفتاة « جريس فرنون بوسلى » التى تفوقت فى الشجاعة والبطولة ، إذ جمحت الباخرة « جرجينو » على الشاطئ بالقرب من « برت » بعد أن نزل الركاب من النساء والأطفال فى قارب ليصلوا به على الشاطئ ، فغاص القارب لهياج الموج وشدة اللجة بما أحدثه جموح

السفينة ، وأشرف ركابه على الهلاك ، يجدّون فى السباحة والماء يغلبهم ، ويصيحون مستغيثين والماء يطويهم ، حتى ظهر على قمة المنحدر فتاة على صهوة جواد .

كانت هذه الفتاة جريس ، وأول ما خطر لها عندئذ هو إنقاذ الغرقى من نساء وأطفال ، فركضت بجوادها إلى أسفل الصخرة وقادته إلى لجة الأمواج ، وصارت تعبر به حتى وصلت لدى مكان القارب الغائص فتعلق بـه وبها النساء والأطفال فحملتهم إلى الشاطئ زرافات زرافات . ولم يبق من الغرقى غير رجل بعيد ، فصارت تكافح الأمواج مرة أخرى إلى أن وصلت إليه فأنقذته ، فأصبح عدد من أنقذتهم خمسة عشر إنساناً ، وذلك فى مدة لا تتجاوز أربع ساعات قاست فيها أعظم المتاعب وأشد الشدائد ، فخارت قواها وأوشكت على الإغماء وهى مبللة الثياب منفوشة الشعر ، ولم يوقفها ما نالها عن الاسترسال فى إتمام عملها ، فركبت الجواد وركضت اثنى عشر ميلا إلى دارها لترسل إلى الناجين ما يخفف عنهم ألم ما قاسوه ، ورأتها شقيقتها متعبة منهوكة فبادرتهم بدلها متوغلة الغابة إلى الشاطئ ، فأمدتهم بالشاى واللبن والسكر والدقيق ، ثم اصطحبتهم إلى دارها زيادة فى الاعتناء بهم وليستريحوا قبل متابعة السفر . وشديد علينا ما حل بمسز بروكمان شقيقة الباسلة

جريس ، فإنها أصيبت ببرد أثناء جهادها ، وقضت شهيدة الواجب بداء حمى الدفاع .

وفتاة شتلاندا لم تكن بأقل شجاعة من تلك ، حين اندفعت لإنقاذ بعض الصيادين ، وقد طغى البحر وغضب نافراً ثائراً يهدر ويزبد ، وهبت الريح صرصرا عاتية حتى انقبض الكل وجبن لا يجرؤ على الدنو من اللجة المتلاطمة القاسية .

هبت عاصفة شديدة عند جزيرة « إنست » المترامية ، وكانت مراكب الصيد فى البحر ، والصيد مهنة سكان تلك الجزيرة ومعاشهم ، فكانت المراكب عند ثائرة الجو ترتد على عجل إلى الشاطىء ، تشفع الواحدة الأخرى لتحتمى هناك لائذة بالنجاة . ولكن بقيت سفينة من هذه السفن فى عرض البحر يصدها الموج العنيف عن المخور فإن تقدمت خطوة ارتدت . وقد رأى من على الشاطئ ما هى فيه من العناء الشديد والمكافحة لبلوغ الحياة ، ثم انتهت بها الحال أن انقلبت ولفظت من فيها يلاطمون الموج ويلطمهم ويجاهدون فى الخلاص على غير جدوى . وقد ظهر للذين على الشاطئ خطر أمرهم ، وأبصروا الموت الخانق وهو يغتالهم ، فتقدمت فتاة شتلاندا « هيلين بيترى » الرقيقة الجثمان ، وصاحت فيمن على الشاطئ تستحثهم للمبادرة فى تخليص الهالكين ، وتلح عليهم بدموع جارية وابتهال يحرك العواطف ويلين الوجدان ،

فالتوى الرجال وتبرموا بها وهم يعتقدون أن الموت نصيب من يجازف بالاقتراب من هذا البحر الغضبان ، وبالاندساس فى معمعان هذه العاصفة القاصفة .

أهابت بهم هيلين فكانوا صماً لا ينصتون ، فنفرت منهم غير هيابة للموت ودحرتهم بنظرات من ملام واستحقار . ونزلت تواً إلى أحد القوارب وقد لحقت بها زوج أخيها ووالدها الذى كان فاقداً إحدى يديه . فأمسك بالباقية دفة القارب واتجه الجميع إلى حيث المركب الغـارق والنفـوس المحتضرة ، فصاروا يغالبـون الموج ويكافحون الريح فلم يدركوا المركب إلا بعد جهد جهيد ، وبعد أن سبق البحر فالتهم اثنين ممن يغرقون وطواهم فى جوفه طى الكتاب ، وبقى اثنان ممسكان فى أطراف المركب .

فلما وصل المرأتان والرجل العاجز إلى هناك ، كان قد خارت قوة أحد الرجلين فأفلتت يده من طرف المركب وانتزعه الموج يقذف به ويطويه ، فلولا أن هيلين أمسكت بشعره وجذبته إلى قاربها لكان انحط إلى قاع البحر واندثر ، ثم أعانت الرجل الآخر على الصعود إلى القارب ، ورجعت بهما سالمين غانمين بالحياة .

كانت هيلين بيترى هذه تعيش فى انعزال وتشتغل بصفة خادمة فلم يسمع بأمرها أحد ، حتى توفيت إلى رحمة الله من عهد قريب ، وعندها ذكرها الناس وذكروا شجاعتها العظمى .

إن مثل هؤلاء الأبطال يكثرون فى بلاد تكثر فيها هذه الحوادث .

وإليك خبر « جريس دارلنج » العاطرة الذكر طول الدهر ، والطيبة الأحدوثة على المدى ، فما من أحد يستطيع نسيانها أو نكران شجاعتها ، فهى بطلة منارة « لنجستون » التى توجد حولها جزائر « فيرن » فى الشمال الشرقى من شاطئ « نورثمبرلاند » تكتنفها صخور كالحة سوداء يمد البحر المخيف لجة فوقها . فإذا هاجت الزوابع واشتدت تموجات الريح تعذر الدنو من هذه الصخور ، وأهيب جانبها أياماً وأسابيع فلا يغشاها غير طيور البحر تصيح أفراخها وتوقوق أمهاتها الآونة بعد الآخرى .

وأقيمت على الطرف الآخر من هذه الصخور منارة لنجستون لتحذير السفن المقلعة من إنجلترا إلى اسكتلندا . وكان يتعهد أمر هذه المنارة رجل شيخ وزوجه وابنتهما الفتاة .

ففى إحدى ليالى شهر سبتمبر سنة ١٨٣٨ عبس الجو وثار وقامت عاصفة مريعة ، وكان فى البحر إذ ذاك السفينة المسماة « وربرشير » تسلك الطريق من مدينة « هل » إلى « داندى » . وكانت تلك السفينة مختلة العدة خربة الآلات ، فلم ير ربانها بعد أن تركوا مدينة « هل » إلا أن يطفئوا النيران ويسيروها بالشراع ، فسارت قليلا حتى وصلت رأس « سانت آب » وهناك عصفت العاصفة جبارة فصدتها ورجعت بها إلى الوراء . ولدى الفجر

اضطربت السفينة وجمحت فانصدمت بقوة هائلة فى صخور « هوكر » وانكسرت شطرين ، فتسابق من فيها للنجاة . فركب تسعة بحارة قارباً وفروا إلى عرض البحر من ممر بين الصخور لم يكن هناك سواه لخلاصهم .

أما الباقون فحملتهم الأمواج وصعدت بهم وهبطت حتى غرقوا جميعاً ، و لم يبق غير تسعة أشخاص أمسكوا بمقدمة السفينة وصاروا يصيحون استغاثة واستنجاداً . فسمعت صياحهم « جريس دارلنج » وهى على بعد نصف ميل مستقرة فى المنارة تقضى دورها فى الخفارة بالهزيع الأخير من الليل ، و لم تكن أطفئت المنارة بعد .

فلما رأت الصياح أحدقت النظر فرأت هؤلاء الغارقين ممسكين بمقدمة السفينة المشطورة — رأتهم بالرغم من الضباب المتكاثف والبحر الهائج ، ففزعت إلى أبيها تسأله أن يدلى القارب تنقذ الغرق ، فأبدى لها أن ذلك إنما هو إقدام على الموت الأكيد . غير أنها ألحت فأذعن لها وأدلى القارب فنزلت به وتبعها أبوها ، فمخرت فى البحر غير خاشية خطراً ولا ويلا .

كان الأمل فى خلاص هؤلاء المساكين ضعيفاً ضئيلاً ، ولكن الله أبى إلا خلاصهم ، فبعث قوته فى ذراعى تلك الفتاة كما بعث الإيمان فى قلبها ، فانطلقت هى وأبوها إلى حيث الهول والثبور بجأش رابض ونفس مطمئنة .

تمكن الإثنان بفضل العناية واليقظة من الوصول إلى السفينة آمنين ، فجعلت جريس دارلنج تسلك بالقارب بين الصخر الوعر والمسلك المتلبد محتاطة من تهشيم القارب ، إلى أن وصلت إلى التسعة الأشخاص فتمسكوا بقاربها ونزلوا به الواحد بعد الآخر ، ثم عادت هى ووالدها بهم إلى المنارة . وهناك تلقتهم أمها عاطفة مهنئة لهم بسلامة الإياب ، واعتنت بالسالمين خير عناية وأطعمتهم من جوع وردت عليهم قوتهم وقواهم ، وبقوا لدى هؤلاء الكرام مدة ثلاثة أيام ريثما هدأت العاصفة وتيسر الركوب إلى الشاطئ .

سمعت الأمة بهذا الحادث فاهتزت له وأكبرت الفتاة أيما إكبار ، وصارت الهدايا ترد على جريس دارلنج تترى ، وصار المصورون يذهبون إليها من أقاصى الجهات يصورونها ، وصار الشعراء الكبار من مثل « وردس ورث » ينظمون فيها القصائد الغراء .

وقد أريد تمثيل سفينة تغرق فى أحد معاهد التمثيل وتنقد جريس دارلنج عشرين جنيهاً لتجلس فى قارب هناك ليلة التمثيل ، فأخذتها العزة وأبت كل الإباء أن تترك مكان نشأتها وتغادر صخور البحر والمنارة لتمثل مثل هذه الأدوار . وأى مكان أليق بهذه الملكة الحسناء من هذا المكان ، وعلامَ تترك المنارة وحياتها فيها هادئة رغدة .

وذكر عنها أحد من زاروها أنها كانت دمثة الأخلاق طيبة القلب ساذجة .

بعد ذلك الحادث بثلاث سنوات بدت على جريس دارلنج أعراض السل فلم تعش إلا بعض شهور قليلة ، ثم فاضت روحها الطاهرة .

توفيت تلك الفتاة الكريمة بعد قضاء عمرها هادئة سعيدة فى صلاح وتقوى ، وقبل وفاتها زارتها سيدة بسيطة الملبس متواضعة النفس على علو جاهها وعظم مقامها فهى دوقة « نورثمبرلاند » ، حيث أرادت أن تودع تلك البطلة قبل زيالها ، فحازت بهذه الزورة فضل الكريمات والعظمة الحقة وزاد بها ضياء تاجها وشاهق محتدها .

لقد أقيم « لجان دارك » تمثال ليشهد بما أتت من جلائل الأعمال ، ولكن لم يقم لجريس دارلنج مثل هذا التمثال فما هى فى حاجة له ، لأن عملها مأثور خالد الذكر ولها عند الله خير الجزاء .

الفصل السادس

فى المـؤاساة

إن المؤاساة إحدى عظائم الأسرار فى الحياة ، فهى تزهق الباطل وتقوى الحق ، وتكسر شر العناد وتلين أقسى القلوب ، وتكوّن أصلح السجايا فى خليقة الإنسان ، وهى إحدى المكرمات الكبرى التى يتأسس عليها الإيمان .

ويحكى عن القديس « جون » حينما كان شيخاً هرِماً أنهكته السنون ، بحيث لا يقوى على المسير ويصعب عليه التكلم ، أن أصحابه حملوه ذات مرة إلى مكان اجتمعت فيه صغار الأطفال ليعظهم . فلما صار بينهم قال لهم : « أيها الصغار أحبوا بعضكم بعضاً ، ولتكن بينكم رحمة ومودة » . ثم جعل يكرر عليهم هذه العبارة عدة مرات ، فسئل عما إذا كان لديه سوى ذلك الوعظ فأجابهم أنه يلح عليهم فى تكرير هذه الجملة لأنهم لو عملوا بها فلا يوجد أثمن نصيحة منها .

إن المحبة هى منبع المؤاساة ، وليست إلا مرادفاً لمعنى التأثر للغير والإخلاص ، فإن الإنسان يخرج بها عن نفسه ليتقمص فى نفس

غيره ، فيحزن لحزنه ويعاونه فى الشدائد ويرقّ عنه ، ولا توجد محبة بغير المؤاساة ولا صداقة بدونها . وإنها كالرحمة والكرم لها الثواب والجزاء العميم ، فهى تثيب المآسى وتثيب المتأسى له ، فهى بينما تسعد قلب الأول أيما إسعاد تغرس الشفقة وعرفان الجميل فى قلب الثانى .

ويقول « كاتن فارر » : إننا غالباً نحسن بالمؤاساة أكثر مما نحسن بالاجتهاد ، ونقوم للورى بخدمات خالدة إذا انعدم الحسد من بيننا واعترفنا بالفضيلة ، أكثر مما إذا جاهدنا فى معارك الحياة ومطامع النفوس . ولقد يفقد الإنسان مقامه ونفوذه وثروته أو صحته ، ومع ذلك يعيش راغداً مرتاحاً إذا اتكل على الله وسلم للأقدار . ولكن حياته تصبح حملاً ثقيلاً بفقدان شىء واحد وهو المؤاساة .

وإن المعروف قد يقابل حقيقة بالجحود دائماً ، ولكن يجب أن لا يكون هذا عاملا لالتواء الناس عن المؤاساة والتبرم بها . وهذه إحدى الصعوبات التى تغالبها فى الحياة ، وإن أسفل الناس لحقيق بالمعاونة والمؤاساة التى هى دين على الإنسان . ولقد يصح ما يقال من أن سعادة الرجل الشرير لها من الخطورة مكان عظيم فى سعادة الإنسان عامة ، كما تكون من أشرف الرجال وخيرهم . ثم إن الإنسان من وجهة أخرى لا يملك أن يفعل الخير أو يرتكب الشر على الناس من غير أن يكون من هذا العمل إحسان أو إساءة إلى نفسه .

وقد لا يوجد نفوذ أقوى من نفوذ المؤاساة فى الحث على الإخلاص وتنبيه الأفئدة لواجب المحبة ، وقلما لا يفلح نفوذها ولو فى أخشن الطبائع وأقساها . وإنها لتأتى من الأعمال أكثر مما تأتى به المقدرة والعظمة . فالكلمة الطيبة والنظرة الرحيمة تؤثر فيمن لا يؤثر فيهم الاستبداد والجبروت . ففيما تستجلب المؤاساة المحبة والطاعة تثير الخشونة والأحقاد والمقت والنفر والعناد . ولقد صدق الشاعر حيث قال : إن القوة والجبروت لا تؤثر مثقال ذرة ، كما تؤثر الملاطفة والمحاسنة .

إذا اتسع نطاق المؤاساة حالت إلى الإنسانية العظيمة العامة ، فهى كفيلة للإنسان المتمسك بها بأن يرفع أبناء وطنه وينقذهم من الفقر والأحزان ، ويحسن حالة الناس ويدخل المدنية فى أدنى البلاد وأقصاها ، ويوثق عروة السلم والطمأنينة ليقرب بين قلوب بنى الإنسان ، ويصلح ذات البين بين الفصائل المتنافرة . فمن واجب كل إنسان أغنى من سواه فى الثروة أو العلم والمعارف أو الجاه وعلو المحتد أن يصرف جزءاً ولو يسيراً من وقته وماله للإصلاح بين الناس وترغيد عيشهم .

وليست المبالغ العظيمة من النقود هى ذات القوة اللازمة ، ولا العقول الكبيرة هى ذات القدرة الفعالة المحتمة . وإنما هى المحبة والمؤاساة . فكم من أعمال جليلة قامت بأقل نقود مما تكسبه إحدى

الحوانيت فى السوق . ولم تنجح إلا بالصالحات الطيبات . وإن أصل الإيمان هو الوئام والإخاء حيث يجب أن يحب الإنسان لغيره ما يحب لنفسه ، وأن يساعد كل أخ أخاه فيعاون القوى الضعيف والغنى الفقير والعالم الجاهل ، ومع مراعاة طبقات الناس فى ذلك ، ومساعدة كل بما يقدر من الخدم لغيره .

ويمكن للإنسان أن يجاهد فى الحياة بما فى وسعه ، فيجعل لنفسه ولغيره من القيمة بقدر ما أعطى من القدرة ، فإذا لم تعارضه الظروف وتمانعه الحوادث كانت له السلطة المطلقة على حياته المادية والأدبية .

* * *

رقم الإيداع : ٣١٥٨ / ٩٤
الترقيم الدولى : 2 - 0852 - 11 - 977

Bibliotheca Alexandrina
0295532